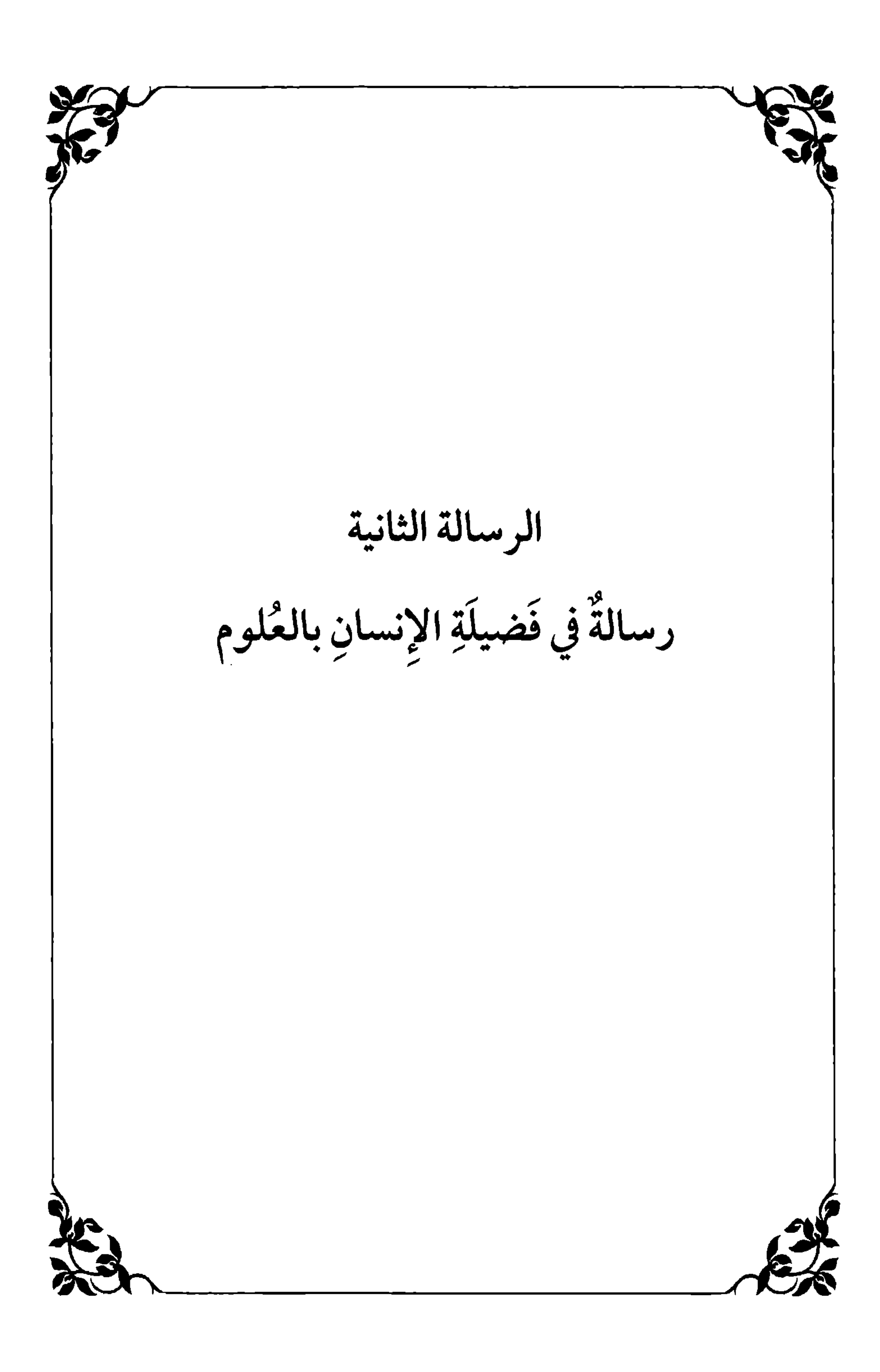


الرسالة الثانية

رسالةٌ في فَضيلَةِ الإِنسانِ بالعُلوم

رسالةٌ في فَضيلَةِ الإِنسانِ بالعُلوم

وصفُ المَخطوطَة:

هذه الرسالةُ مِن مُصنَّفاتِ الراغِبِ في «فَضيلةِ الإِنسانِ بالعلوم» واحِدَةٌ مِن ذلك المجموع الذي وقَعتُ عليه في مَكتبةِ أَسْعد أَفَندي بالسّليمانيةِ برقم ٣٦٥٤ كما تَقدَّم.

وقد نشرتُ هذه المَخْطوطَة، بهذا التحقيق، في مَجلَّةِ كُلِّيَةِ الدراساتِ الإِسْلامِيّةِ والعَربيّةِ، دبي، العدد الثاني والعشرين، شوال ١٤٢٢هـ ديسمبر ٢٠٠١م.

ونسبةُ المَخطوطةِ للراغِبِ الأَصْفَهاني واضحةٌ صَريحةٌ علىٰ الصفحةِ الأولىٰ فيها، كما يُرىٰ في الصورة. ولَعلَّ هذا يُحسَبُ مِن مَعالِمِ القُوّةِ الذاتيةِ في هذه المخطوطةِ. فكثيرٌ مِن المخطوطاتِ تَفقِدُ النسبةَ الصحيحةَ لصاحِبِها، أو أنّ فيها نسبةً لغَيرِ صاحِبِها، ولا بُدَّ مِن بَذلِ جُهدٍ عِلميٍّ كبيرٍ يُصحِّحُ هذه النسبَة.

ولَعلَّ مِن هذه المعالِمِ أيضاً التِقاءَ المادَّة العِلميَّة، في هذه المخطوطة، مَعَ مخطوطاتٍ أُخرىٰ للرّاغب نَفسه، أو مُصنّفاتِه المطبوعَة، وهو تَكاملٌ داخِليٌّ وقُوّةٌ دافعةٌ ذاتيَّة، يُعتدُّ بها في تَحقيقِ المخطوطاتِ ونَشرِ التُّراث.

ولا يَبدو علىٰ الصفحةِ الأخيرة تاريخُ النسخِ ولا اسْمُ الناسِخ، ويبدُو أنّ الرسالةَ مِن إملاءِ الراغبِ نَفسِه مُباشَرة. فهو يَخْتِمُ رِسالَتَه بقولِهِ: «هذه جُملةُ ما قُصِدَ تَبيينُه في هذه الرسالةِ». يُؤَيِّدُ ذلك مَا وَرَدَ في صَفحةِ غِلافِ المَجموعِ مُنذُ البِدايَة، وهو قَولُه في

المَخْطوطَةِ الرابِعةِ: «رِسالَة في مَراتِب العُلوم» أنها «وهو مِن إملائِه أيْضاً». ومَعنىٰ ذلك أنّ هذه المخطوطاتِ في هذا المجموعِ، علىٰ الأغْلَبِ مِن إملائِه.

وتَتألّفُ المخطوطةُ مِن تِسعَ عَشرةَ لوحةً عليها تسعَ عشرةَ صَفحَةً، في كُلِّ صَفحةٍ سَبعَةَ عَشرَ سِطراً، في كُلِّ سِطرٍ نَحوُ عَشْرِ كَلِمات.

وقد كُتبَتِ المخْطوطَةُ بخطٍّ فارسيٍّ (تعليق) بسيط واضِح.

مَوضوعُها:

بَعدَ أن يُوضِّحَ المصَنِّف، في مُقدِّمةِ رِسالتِه، أهمِّيّةَ السعادَةِ النّفسيَّةِ في الآدابِ والعُلومِ بالقياسِ إلىٰ السعادةِ الناشِئةِ مِنَ المالِ والجاهِ وعَن كَمالِ الجِسم، يُبيِّنُ فَضلَ الإنسانِ علىٰ الحَيوان، ثُمَّ يتحدَّثُ بالتفصيلِ عن فضيلةِ العَقلِ وأنواعِه والمعرِفَة وأنواعِها الموروثَةِ والمكتَسبةِ والعلومِ وأنْفعِها.

بَعدَ هذا يَخلُصُ إلىٰ القِسمِ الأهَمِّ في المخطوطةِ وهو الصفاتُ التي يَنبَغي أنْ يَتوفَّرَ عليها طَالِبُ العِلمِ أو ما نُسمّيهِ اليَومَ بالمُتعلِّم أو الطّالِب، ويحدِّدُها في ثَلاثٍ وعِشرينَ صِفةً تقعُ في ستِّ صَفحات، وكذلك الصِّفاتُ التي يَنبَغي أنْ تكونَ في المعلِّمِ أوِ الشّيْخ، وهذه يحدِّدها في تِسعِ صِفات.

إنّ الرسالةَ تَترَكَّزُ في العِلمِ وفَضلِه في الإنْسان. ففيه السعادةُ الكُبرىٰ، وفيهِ يَظهرُ الفرقُ بينَ الإنسانِ والحيوان، وهي تُبرِزُ دَورَ العَقلِ في هذا العِلم، فهو أداتُه وسَبيلُه، ولذلك يُفيضُ في صِفاتِ طالبِ العِلمِ المتَعلِّمِ المتَعقِّل، وفي صفاتِ المعلِّمِ الشيخِ المؤَدِّب.

إنها ذاتُ أبعادٍ فَلسفيّةٍ فكريّةٍ في حياةِ الإنسان، وذاتُ أبعادٍ تَربويّةٍ في ذِكرِ المُتَعلِّمينَ والمعَلِّمين.

كُتبٌ ذاتُ عَلاقةٍ بموضوعِ الرِّسالة:

١ـ نَحوَ صِياغَةٍ إسلامِيَّةٍ لمناهجِ التَّربية، أ. د. إسحق الفرحان وزملاؤه، منشورات جمعية الدِّراسات والبحوث الإسلامية، ١٩٨٠، عمان.

٢ـ التّربيةُ الإسلاميّةُ بينَ الأصالةِ والمُعاصرة، أ. د. إسحق الفرحان، دار الفرقان، ١٩٨٣ عمان.

٣ـ الفِكرُ التَّربويُّ العربيُّ الحديث، د. سعيد إسماعيل علي، عالم المعرفة، ١١٣ أيار ١٩٨٧.

٤ـ دَليلُ الباحثِينَ إلىٰ التّربيةِ الإسلاميةِ في الأردن، د. عبد الرحمن صالح، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان ١٩٩٣.

٥ـ الفكر التربوي، قائمة ببيليوغرافية، محيي الدين عطية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٢، القاهرة.

٦ـ أيها الولد ـ الغزالي ـ د. علي محيي الدين القرة داغي، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٥.

٧ـ فن التّعليم عند بَدرِ الدِّينِ بنِ جَماعَة، د. حسن إبراهيم عبد العال، مكتب التربية العربي لدُولِ الخليج، ١٩٨٥.

* * *

صورة الصفحة الأولى من مخطوطة «رسالة في فضيلة الإنسان بالعلوم»

فَضيلةُ الإِنسانِ بالعُلومِ
للراغِبِ الأصفهاني

وبه نَستَعين، أسْألُ اللهَ تعالىٰ أنْ يَجعلَنا مِمَّن يتَبصَّرُ[١] ويَتفكَّـرُ[٢] ويَعتَبِرُ[٣] فيستَظهِر[٤]، وأن يَجعَلَنا مَهديِّينَ لفَقدِ عُيوبِنا، ويُوَفِّقَنا لما يَحسُنُ بالعاقِلِ احْتباؤُه[٥] وبالمتَديِّنِ اصطِفاؤُه، وأنْ يَجعلَ رَغبتَنا فيما هو مِنحةٌ مُخلّدةٌ لا عاريةٌ مُستودَعة[٦]، وأنْ يُصلِيَ علىٰ نَبيهِ المُصطفىٰ ورَسولِه المرتضَىٰ.

ولمّا رأيتُ الأُستاذَ[٧] حَرسَه الله، سَالِكاً طريقَ أسلافِه في مُراعاةِ الحَسب، مُـحِبًّا بطبْعِه اقتباسَ الأدب، ومُهَوَّماً[٨] باحْتباءِ الفَضائِلِ واجْتنابِ الرذائِـل،

(١) تبصر: تأمل وتعرف.

(٢) تفكر وافتكر الأمر: أعمل العقل فيه.

(٣) اعتبر بالشيء: اتعظ به.

(٤) استظهر بالشيء: استعان.

(٥) حباه: أعطاه، احتبىٰ الشيء: طلبه، طلب العطاء فيه، أي اتخاذه.

(٦) أي: جعلنا ممن يبحث عن عطاء الله الباقي في الدنيا والآخرة وليس العطاء المؤقت.

(٧) كما تقدم، ربما كان الأستاذ المعني هنا الوزير أحمد بن إبراهيم أبو العباس الضبي، الذي وزر لبني بويه بعد وفاة الصاحب بن عباد عام ٣٨٥هـ. وتوفي ٣٩٩. راجع «الراغب الأصفهاني وجهوده في اللغة والأدب». للباحث، ص٣٥، مكتبة الأقصىٰ، عمان ١٩٨٦.

(٨) هوم: نام نوماً خفيفاً، مهوماً باحتباء الفضائل: راغباً باختيارها.

أحْببتُ[١] أنْ أُعرِّفَه، بالقَوانينِ[٢] الصحيحة، أنّ الفَضيلةَ الكامِلةَ والسعادةَ المتناهِيَـة، في تَحليةِ النّفسِ بالعُلومِ النافِعة[٣]، عاجِلاً وآجِلاً، هي الـمؤَثِّرةُ عندَ العُقلاء.

فالسعادات، وإنْ كانتْ ثَلاثاً:

سعادةً خارجةً مِن مالٍ وجاهٍ ونَباهةِ حال.

وسعادةً بدنيّةً وذلك صحّةُ مزاجِ الأعْضاءِ وكمالِ جِسمٍ وجَمال.

وسعادةً نَفْسانيةً، وهيَ الآدابُ الحميدةُ والعلومُ الشريفة؛ فأشْرَفُها هي الأخيرَة، فإنها الباقيةُ علىٰ تَقلُّبِ الأحوالِ النافعةُ في الدارين[٤].

وكانَ بعضُ الحكماءِ رَكِبَ سفينةً مع أصْحابِ مَالٍ فانكَسَرتِ السفينةُ فغَرِقتْ أموالُهم وافتقَروا سِواه[٥]، فإنّ تعلُّمَه غناه[٦]، فقال له واحِد: أرْجعُ إلىٰ بَلَدي، هل لك إلىٰ قَومِك حَاجة؟ فقال: «قل لَهم: إذا اتَّخَذْتُم[٧] مالاً فاتَّخذوا مالاً

(١) جواب الشرط لأداة الشرط «لما» في بداية هذه الفقرة.

(٢) القانون: مقياس كل شيء وطريقه.

(٣) شبه الجملة من الجار والمجرور في تحلية النفس بالعلوم في محل نصب حال، وخبر أن هو المؤثرة، أي أن الفضيلة حينما تكون النفس متحلية بالعلوم هي التي يفضلها العقلاء. ولعل تحلي النفس بالعلوم هو الموضوع الرئيسي في هذه الرسالة.

(٤) يؤيد المصنف قَولَهُ السابق في أن الفضيلة المتمثلة في العلوم النفسية النافعة هي التي يختارها العقلاء يؤيد ذلك بتعداد أشكال السعادة في المال والصحة والنفس، ويذكر أن سعادة النفس بالآداب والعلوم الشريفة هي أفضلها علىٰ الإطلاق.

(٥) أي: كلّهم أصبح فقيراً إلا هذا الحكيم الذي معهم.

(٦) إنه غني بعلمه.

(٧) وردت في الأصل بإشباع الخصم علىٰ الميم إلىٰ الواو: إذا اتخذتموه.

لا يَغرقُ إذا انكسرتِ السّفينة[١]، فأما المالُ فلَيسَ بمحمودٍ لكلِّ أحد، بل ذلك لبعضٍ دونَ بعض، إذا كان في قلبِه غُنية»[٢].

ورُوِيَ أنه عُرِضَ علىٰ أفلاطونَ[٣] مالٌ كثيرٌ فقال: «ما أصنعُ بما يُعطيهِ الحظّ، ويحفَظُه اللّؤم، ويُهلِكُه الكَرَم؟!»[٤].

وأمّا الحسنُ فقد أصابَ مَن قال:

وما الحسنُ في وَجهِ الفَتىٰ شَرفاً لـه إذا لَمْ يكـنْ في فِعلِـه والخَلائِـق[٥]

وسُئِلَ حكيمٌ عن ذي جَمالٍ خِلوٍ مِن الفَضائِل، أمّا البيتُ فحَسنٌ وأما الساكِنُ فرديءٌ! والجاهلُ إذا كان ذا جَمالٍ ومالٍ فَعَيْرٌ[٦] جُعِلَ له لِجامُ ذَهبٍ وأثوابُ حِبْرٍ[٧]!!

ومـا ينفـعُ الـبِرْذَوْنَ زينـةُ حبلِـه إذا جُرِّدَ الحُرّ العَناجيجُ للحَضـْر[٨]

---

(١) يعني: العلم.

(٢) الغنية بالكسر والضم: الغنىٰ.

(٣) فيلسوف يوناني (٤٢٨-٣٤٧ ق.م) تلميذ سقراط، أشهر كتبه «الجمهورية».

(٤) جواب جامع حول المال ومصدره والحرص عليه وطرق إنفاقه.

(٥) الطويل، أبو الطيب المتنبي، ديوانه، بشرح البرقوقي، ج٣، ص٦٢.

(٦) العير: الحمار.

(٧) حبر: حبرة وهي ثوب من قطن أو كتان مخطط كان يصنع في اليمن.

(٨) الطويل: وقد تكون زينة رحله. البرذون يطلق علىٰ غير العريق من الخيل والبغال.
العناجيج: جياد الخيل والإبل، مفردها: عنجوج، وهو الرائع من الخيل والإبل. والحضار: ضرب من عدو الدواب، والحضار من النوق: القوية الجيدة السير. الشديد العدو، أي أن الدواب بعدوها لا بزينتها.

والمُفتخِرُ بشيءٍ مِن ذلك كالفاخِرةِ بحِدْجِ ربّتِها[١]. فقد افْتَخَرَ جاهِلٌ بدارٍ وعَقارٍ ومَراكِبَ وأثاث، فقال له حَكيم: «أيُّها الفَتىٰ لو تكلَّمَتْ هذه الأشياءُ وقالتْ: هذه المحاسِنُ لنا دونَك، فما الذي لك؟ ما كُنتَ قائلاً لها؟» فنبِّـهَ بذلك أَنْ لا فَضيلةَ له بمالِه[٢].

ودعا موسِرٌ خِلوٌ مِن الفَضيلةِ حَكيماً إلىٰ دارِه، فرأىٰ الرَّجلُ رَجُلاً دنيًّا ومنْزلاً سريًّا[٣]، فبزق[٤] الحكيمُ في وَجهِه، فقال الرَّجل: أيُّها الحَكيمُ ما هذا السَّفهُ الذي ظَهرَ مِنك؟ فقال: ما هذا إلا حِكمَة، إنّي تأملتُ فلم أر في الدّارِ شيئاً إلا استوعب كَمالَه اللائقَ به سِواك، ومن شأْنِ البُزاقِ أَن يُقذَفَ إلىٰ أخَسِّ ما يوجَد، أنتَ أخسُّ ما في دارِك[٥]!!

وحُقَّ علىٰ مَن أُحِيلَ[٦] إلىٰ الفَضيلةِ التامةِ أن يُخطِرَ ببالِه أموراً:

الأوّل: أنّ هذه السعادةَ ليستْ تُنالُ إلّا علىٰ جِسرٍ مِن التعب[٧] وأن حظَّ

---

(١) الحدج: مركب من مراكب النساء كالـهودج، وهو مثل يضرب في فخر من يفخر بمكاسب الآخرين، وقد قيل المثل أصلاً في الخادمة التي تفتخر بهودج مولاتها.

(٢) أي: ما جر عليه ماله أي فضل.

(٣) المنزل السري: الشريف. من سرو يسرو سراوة وسرواً فهو سري.

(٤) بزق وبصق بمعنىٰ.

(٥) أورد المصنف هذا الخبر في غير مصنف من مصنفاته، راجع «الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة»، ص٤، كما ورد في «تهذيب الأخلاق» لابن مسكويه، ص٢٠٠.

(٦) وردت في الأصل (عيل)، ولعله أراد أحيل أي أعين واستقر علىٰ. والفضيلة التامة يعني بها النفسية.

(٧) هذه العبارة مأخوذة من بيت شعر أبي تمام: «البسيط» ديوانه، بشرح التبريزي، المجلد الأول، ص٧٤.

بصرت بالراحة الكبرىٰ فلم ترها   تنال إلّا علىٰ جسر من التعب

الجِدّ[١] فيها أكثر مِن حَظّ الجَدّ[٢]، بل لا تَراها حاصِلةً بالجدِّ المحض، بخلافِ السعادَتينِ الأخرَيَينِ[٣] فإنهما حظٌّ قد يجوِّزه طالبه ويُحوِّزهُ غيرُ جالبِه.

وقد قيل: العِلمُ لا يُعطيك بَعضَه حتىٰ تُعطيهَ كلَّك[٤]، ولا يَرعاك حتّىٰ تُعيرَه[٥] جدَّك وجُهدَك.

فقــل لُمرجــي مَعــالي الأُمــورِ بغير اجْتهادٍ، رجـوتَ المحـالْ[٦]

وقد تعدّىٰ من تمنّىٰ أن يكون كمن تعنّىٰ[٧].

والثاني: أنّ مَن طلبَ العَظيمَ خاطرَ بعَظيم، «ومن طلبَ الحسنـاءَ لم يَغلُها المهْر»[٨] ومَن طَمحَتْ هِمَّـتُه إلىٰ الأُمورِ السنيّةِ[٩] فواجِبٌ أن لا تسدَّ[١٠] علىٰ همَّتِه الطّريقُ الدَّنيّة، فقدْ أصاب من قال:

لو لا المشقةُ سادَ الناسَ كُلَّهُـمُ الجودُ يُفقرُ والإقدامُ قَتّالُ[١١]

---

(١) الجد، (بفتح الجيم)، الحظ. ومن معانيها أيضاً، أبو الأب أو أبو الأم.

(٢) يعني: السعادة البدنية وسعادة الثروة والجاه اللتين ذكرهما قبل قليل. وردت في الأصل الآخرتين.

(٣) فسعادة الثروة والجاه قد يصل إليها من يبحث عنها، أما السعادة البدنية فليست إرادية.

(٤) وردت في الأصل كله، ويريد أن العلم لا يسلس القياد إلا بتفرغ العالم له.

(٥) يقال: أعاره اهتمامه وأعاره جده واجتهاده.

(٦) المتقارب، وردت «الـمحالا» وصوابه بتسكين اللام، الخبر أرزي، «مجمع البلاغة» (١: ٣٦٣)، و«محاضرات الأدباء» للراغب (٢: ٤٤٦).

(٧) أي: أن المعاناة الحقيقية شيء وتصورها شيء آخر.

(٨) عجز بيت شعر لأبي فراس الحمداني، وصدره: «تهون علينا في المعالي نفوسنا» ديوانه ص١٦١.

(٩) أي: الرفيعة العالية الشأن.

(١٠) وردت (تشد) أي: من طلب الهدف الرفيع لا ينبغي أن تعوقه عن سفاسف المعوقات.

(١١) البسيط، المتنبي، ديوانه: بشرح البرقوقي، الجزء الثالث، ص٤٠٦.

والثالثُ: أنّ هذه السعادَة[١]، وإنْ كان ابْتداؤها لا يتعدّىٰ عَن ضَربٍ مِن الاكتِئابِ والتأذّي[٢]، فإنّها متىٰ أُكرِهَتِ النّفسُ عليها وأذاقَتْها استِطابَته[٣] حينَئذٍ واستَلَذَّتهُ لا كاللَّذّاتِ البَدنيّةِ والشهواتِ الجِسمِيّة. فلَذَّةُ البدَنِ مُتبدِّلةٌ مُتغَيِّرة، ولذّةُ النّفسِ بالعِلمِ مُؤبدَة[٤] مخلَّدة، ومَن ذاقَ العِلم وعرفَ طِيبَه عَلِمَ أنّ المرْءَ قد:

تَلذُّ لـه المُـروءةُ وهـي تُـؤذي ... ومن يَعشَقْ يلذُّ له الغَـرامُ[٥]

وأمّا رغبةُ عامّةِ النّاسِ عن هذه الفَضيلةِ فلِجَهلِهم بحلاوَتِها[٦]، وكيف يعرِفُ حلاوةَ طعم طَيِّب[٧] مَن لَم يذُقْه؟ وكيف يَذوقُه مَن لا يُعايِنُه[٨] وكيف يُعايِنه من لم يطلُبْه؟[٩] وكيفَ يطلبُه مَن لم تَتُقْ نفسُهُ إليه؟[١٠] وكيف تَتوقُ نفسُ مَن لَم يُعرَضْ عليه؟[١١].

(١) أي: السعادة النفسية بتحلية النفس بالعلوم النافعة.

(٢) يريد الاكتئاب والتأذي.

(٣) أي: الحزن والهم اللّذانِ يحس بهما الباحث عن العلم والمعرفة في أول الأمر.

(٤) من الأبد، وهو الدهر.

(٥) الوافر، المتنبي، ديوانه بشرح البرقوقي، الجزء الرابع، ص١٩٥.

(٦) وردت في الأصل بحلاوته، ويبدو أن الوراقين في زمن نسخ المخطوطة يراوحون بين الضمائر المذكرة المتصلة والمؤنثة، كما لوحظ أنهم يراوحون بين تاء المضارعة ويائها في الأفعال المضارعة، تغدو ويغدو مثلاً. وهو يعني بذلك أن السواد الأعظم من الناس يعزفون عن فضيلة تحلية النفس بالعلوم لأنهم لم يجربوا طعمها الحلو ولم يعرفوا أثرها الطيب.

(٧) الطيب صفة نابت عن الموصوف: أمر أو شيء أو علم.

(٨) المعاينة مفاعلة من العين الباصرة والرؤية البصرية والمشاهدة المحسوسة، وهي طريق من طرق المعرفة والتعلم.

(٩) فالعلم يحتاج لسعي وبحث وجد واجتهاد.

(١٠) التوق والشوق للعلم أساس في التعلم.

(١١) كي تتوق نفسك لشيء يفترض أن يكون قد عرض عليك وعرفته ولو قليلاً.

جعلنا الله ممن يغنيه فيض آلائه، ومادة نعمائه عن الزلل.

جملةُ ما تَنطوي عليه فصولُ هذه الرّسالة[١]:

الأولُ: الإبانةُ عن فَضلِ الإنسانِ علىٰ سائرِ الحَيوان.

الثاني: ما لا يَستَحقُّ به الإِنسانُ الفَضيلة.

الثالث: فضيلةُ العَقل.

الرابع: أنواع العقلِ.

الخامس: أنواعُ المعارفِ المكْتَسبة.

السادس: ذكرُ أفضلِ العُلوم وأنفعِها.

السابع: ما يحتاج إليه طَلَبُ العلم وكَيفيَّة تَعلُّمه وتَعليمِه.

* * *

---

(١) من منهج المصنف في جميع مصنفاته أنه يقدم لرسالته بمقدمة يذكر فيها دوافعه لتأليفها ويذكر فيها موضوعها الرئيسي بإيجاز شديد ثم يذكر رؤوس الموضوعات فيها قبل أن يشرع في الحديث المفصل في كل منها.

الفَصلُ الأوّلُ

فضلُ الإنسانِ علىٰ سائِرِ الحيوانِ

الأجسامُ الناميةُ[١] ثَلاثَة: نباتٌ وحيوانٌ وإنسان.

فالنباتُ له التغذّي والنموُّ فقط[٢]، والحيوانُ له مع ذلك الشهوةُ والغَضبُ والحِسِّ[٣]، فإنّه يُدركُ الأشياءَ الحاضرةَ بالحواسِّ والبعيدَة بالوَهم[٤]، ويتحركُ لاستِردادِ ما تَحلَّلَ مِن بَدَنِه ولقَهرِ ما أضرَّ به[٥][٦]. وللإنسانِ مع هذه قُوةُ الفكرِ والرويّة[٧].

---

(١) مقابل الجمادات، ويرتبها المصنّف في كتاب آخر له وهو (تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين، ص١٣ طبعة حلب) علىٰ النحو التالي: «خلق الله الجمادات والناميات والحيوانات وختم بالصورة الإنسانية».

(٢) فأدنىٰ الأجسام النامية، وفيه من الخصائص: النمو والتغذي.

(٣) والأرقىٰ من النبات الحيوان الذي يجمع إلىٰ النمو والتغذي صفات الشهوة والغضب والإحساس.

(٤) ربما كانت الغريزة هي أقرب معادل في المعنىٰ الذي يريده المصنف من كلمة الوهم للحيوان.

(٥) وردت في الأصل بها بالتأنيث.

(٦) فراغ في الأصل.

(٧) وأرقىٰ الأجسام النامية للإنسان، فهو يجمع صفات النبات (التغذي والنمو) وصفات الحيوان (الشهوة والغضب والحس) وصفات الإنسان (الفكر والروية). وقد وردت مهموزة في هذا الموضع وفي مواضع أخرىٰ قادمة، والرؤية (بالهمز) الإبصار، وليس هو المراد ـ هنا علىٰ الأغلب ـ لذلك أغلب أن تكون الروية، بتخفيف الهمز، وهي النظر والتفكير في الأمور، وهي بخلاف البديهة. والفكر هو إعمال العقل في المعلوم للوصول إلىٰ معرفة المجهول.

فإذا الإنْسانُ له ما لَـهُما[١] واخْتصَّ بما لَيسَ لها[٢]، وآثَرَ اللهُ كلَّ واحدٍ مِن الحَيوانِ. بفعلٍ يَختصُّ به ويَتعاطاه طبعاً[٣]؛ فبعضٌ مِن طَبعِه أنْ يبنيَ بناءً مُدوَّراً[٤]، وبَعضٌ يَبني مُربَّعاً[٥]، وبَعضٌ يَنسِج[٦]، وبعضٌ يشقىٰ[٧]، وبعضَ يجمعُ ويُحرِز[٨]، حتىٰ إن القَدرَ بطبعِه يَسخَرُ[٩] والبَبّغاءُ يحاكي[١٠].

وجعل لكلٍّ مِنها لِباساً حَسبَ ما رأىٰ له فيه الكِفاية، وسِلاحاً حَسبَ ما رأىٰ مِن مَصلحَتِه أن يَحتَمِلَه. فلبَعضٍ آلةُ الهَربِ وهذا العُرف[١١]، ولبعضٍ رُمحٌ وذلك كالقَرنِ للبَقر[١٢]، ولبعضٍ دَبّوسٌ كالحافِرِ للحِمارِ والفَرس، ولبعضٍ نُشّابٌ كالشوكِ للقُنفُذ. وجعلَ للإنسانِ قُوّةَ الفِكرِ والرويةِ التي يُمكِنُه أنْ يَتوصَّلَ بها

(١) وردت في الأصل له لهما.

(٢) يعني: أن الإنسان جمع صفات النبات والحيوان ولكنها لم تأخذ صفاته.

(٣) أي: يزاول أعماله بما ركب الله فيه من طبع وفطرة وغريزة. ونصبت طبعاً لأنها نابت عن المفعول المطلق.

(٤) كالأدحوة ـ وهو موضع بيض النعام وتفريخه ـ والعامة تسميه (دحو) للعصافير والطيور.

(٥) أما بناء النحل فهو سداسي وليس مربعاً.

(٦) كدود القز.

(٧) يتعب في تحصيل العيش.

(٨) كما تجمع الحيوانات لصغرها العشب وما تفترس من صغار الحيوان.

(٩) شبه صوت القدر وهو يغلي بما فيه بصوت الكركرة وكأنه صوت آدمي يسخر ويكركر.

(١٠) أي: يقلد أصوات الآخرين.

(١١) هو شعر عنق الفرس أو لحمة مستطيلة في أعلىٰ رأس الديك. لكن وظيفة العرف في الهرب غير واضحة، وقد يكون سلاحاً.

(١٢) أي: أن الله سبحانه خلق للحيوان أسلحة يدافع بها عن نفسه فقرن البقر كالرمح وحافر الحمار والفرس كالدبوس وشوك القنفذ كالنشاب.

إلىٰ اتجاهِ الأفْعالِ(١) التي خَصَّه بها والأسْلِحة والأثواب التي جَعلَها له.

ولهذه الفَضيلَة، وهي قوةُ العقلِ التي يُدرَكُ بها الحُكمُ(٢) ويُفعَلُ الفِعلُ المُحْكَم(٣)، بيّنَ تَعظيمِه فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

فالطّيِّباتُ التي رَزقَهم؛ قيل: هي القُوّةُ للعَقلِ وتعلُّمُه(٤). ولتَخصيصِه تعالىٰ الإنسانَ بذلك جَعلَه خليفةً في الأرْض. قال الله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ الآية(٥)، وقال: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩]. فثبَتَ بذلك أنّ الإنسانَ أفضلُ ما خَلقَه اللهُ في هذا العالَمِ.

* * *

(١) لعله أراد باتجاه الأفعال: غاياتها وأهدافها التي يصل إليها بقوة الفكر وبها يستخدم سلاحه ويرتدي ثيابه.

(٢) الحكم: من الأشياء والأفعال في هذه الدنيا.

(٣) أي: الفعل المناسب المعقول.

(٤) وفي تفسير ابن كثير: رزقناهم من الطيبات أي من زروع وثمار ولحوم وألبان من سائر أنواع الطعوم والألوان المشتهاة اللذيذة والمناظر الحسنة والملابس الرفيعة.

(٥) الآية ٣٩ من سورة فاطر، وتتمها: ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾.

الفَصلُ الثاني
ما لا يَستَحِقُّ به الإنسانُ الفَضيلةَ

لكُلِّ شيءٍ مَوجودٍ في هذا العالَمِ فِعلٌ يختصُّ(١) به لا يُشارِكُه فيه سِواه، ولا يَسدُّ مَسدَّه بكَمالِه ما عَداه. وذلك حُكمٌ مُستَمرٌّ في الموجوداتِ العَلَوِيَّةِ كالشمسِ والقَمرِ والكَواكِبِ السفليَّةِ(٢) كالفَرسِ والبَعيرِ.

فإنّ الفَرسَ للعَدوِ الشديدِ والبَعيرُ لقَطعِ الطريقِ المُعطشِ البَعيد(٣)، وعلىٰ ذلك الآلاتُ المحدّةُ(٤) كالسيفِ والسّكّينِ والمِنشار، لا يسدُّ شيءٌ مِن هذه الأنواعِ مَسدَّ غَيرِه علىٰ الكَمالِ والتّمام(٥)، فلا المِنشارُ يصلُحُ لما يَصلُحُ له السيفُ، ولا السيفُ يَصلُحُ لما يَصلُحُ له المِنْشار، ويحاكي ذلك الجَوارِحُ كاليدِ والرجلِ والعينِ والفَمِ واللِّسان(٦).

---

(١) وردت في الأصل يخص.

(٢) مصطلح العلوية والسفلية يعني بها السماوية والأرضية، البعيدة والقريبة.

(٣) الطريق التي يظمأ فيها الإنسان والحيوان لطوله.

(٤) أي: الحادة أو المحددة شفراتها.

(٥) أي: علىٰ الرغم من أنها تلتقي في صفات القطع إلا أن لكل منها عملاً لا يقوم به غيره، كما هو موضح المصنف عن السيف والمنشار.

(٦) فلكل جارحة عمل خاص بها لا تقوم به عنها جارحة أخرىٰ، وهذا يذكر بقول المتنبي (الطويل):

فوضع النـدى في موضـع السـيف بـالعلا … مضـر، كوضع السيف في موضـع النـدىٰ

ديوانه، بتحقيق البرقوقي، ج٢، ص١١.

فللإنْسان، إذن، فعلٌ يختصُّ به، لأجْلِه خُلِق، وهو الفِكْرُ والرؤية، التي بهما يَتوصَّلُ إلىٰ العِلم والعَملِ المُحكَم(١)، ولأجْلِها جُعِلَ خَليفةً في الأرض، وإيّاه عَنىٰ(٢) بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. فالعِبادةُ هي اسْتفادةُ العِلمِ الحَقيقيِّ وتَعاطي العَملِ المُحكمِ بحسبِ ما يَقتضيه العِلم(٣).

إذا ثَبتَ لك شَرفُ كُلِّ موجودٍ بحسب جَودَةِ صُدورِ الفِعلِ المُختصِّ به وإرادتِه بحسبه(٤). فإنّ الفِعلَ والجودةَ إنْ كانا يَتعلّقانِ بالذاتِ الواحِدة، فهما قَويّان(٥)، إذ قد يَفعلُ ما لا يُجيدُ الفِعل، وكلُّ مَن يصدرُ عَنه الفِعلُ وإن لم يَكُنْ كاملاً(٦) نَقصَتْ قيمَتُه بِحسبِ قُصورِه(٧)، حتّىٰ ربَّما اسْتُعمِلَ استعمالَ ما دونَه، كالفَرسِ إذا لم يجد فارِسَه(٨) اسْتُعمِلَ إمّا استعمالَ الحِمارِ بالأكّافِ(٩) وإمّا استعمالَ الأغنامِ بالذبحِ(١٠) والسيفُ إذا قَصر عمّا يَقتَضيه جَوهَرُه استُعملَ استعمالَ

(١) أي: العمل المتقن الذي يدل علىٰ إعمال فكر.

(٢) الفاعل هو الله جل وعلا.

(٣) هذا تعريف جامع للعبادة: العلم الحقيقي والعمل علىٰ استفادته مع مزاولة العمل الجاد كل ذلك علىٰ أسس علمية عقلية. ولعله يعني بالعلم الحقيقي علوم الدين أو ما لا تخالفه علوم الشرع.

(٤) أي: أن رفعة العناصر تعود إلىٰ قيامها بالأفعال المنوطة بها علىٰ الوجه المطلوب مع إرادته لهذه المهمة وحريته في القيام بها، الحسب: حسب الشيء قدره وعدده.

(٥) أي: أن الإجادة تعتبر مناسبة مقبولة إذا صدرت عن المنوطة به عادة.

(٦) غير واضحة في الأصل.

(٧) فقد يقوم بالفعل من يقصر في إتقانه، ولا يقوم به علىٰ الوجه الأكمل.

(٨) غير واضحة في الأصل، وقد تكون فرسي، نسبة إلىٰ فرس، وهو من يقوم علىٰ الفرس وركوبها.

(٩) إكاف الحمار (ككتاب وغراب) برذعته، والأكاف: صانعه.

(١٠) والفرق أصلاً للفروسية وإذا وضعت علىٰ البرذعة أسيء استخدامه وكذلك الأغنام، والسيف =

الفَأسِ والمِنشار، فكذلك الإنْسان، إذا لم يَكنْ مهذَّباً فيما لا يُحسنُ[١] فِعلَه وَجدَ مِن قُوتِه[٢] العائِمةِ والعاملةِ نقصَ قيمَتِه، وربَّما أجري مَجرىٰ البَهيمَة[٣].

وهذه الجُملةُ (تدلُّ)[٤] علىٰ صِدقِ قَولِه عليه السَّلام[٥]:

«قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يُحسِنُ»، «والنَّاسُ أبناء ما يُحسِنون»، وثبتَ أنّ الإِنسانَ ما لم يكنْ عَلِمَ كان شَرّاً مِن البَهائِم. فإنّ البَهائِمَ قد جُعِلَ لكلٍّ مِنها مِقدارُ ما له فيه مصلَحَة[٦]، وجُعِلَ له لباسٌ علىٰ قَدرِ حاجَتِه[٧]، وسِلاحٌ علىٰ حَسبِ طاقتِه لاحْتِمالِه[٨]. والإنسانُ جُعِلَ له، بَدلَ كلِّ ما أُوتِيَ الحَيوانات، الرُّؤيةُ التي إذا جَلّاها[٩] واستَعملَها نالَ بها كلَّ ذلك[١٠] وأكثرَ منها. وإذا لم يَستَعْمِلْها فهو لا شكَّ دونها[١١] منها. ولذلك قال اللهُ تعالىٰ في الجَهَلة: ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ

= إذا استخدم للقطع والنشر بدلاً من الفأس أو كمنشار، كل هذه ألوان من الوظائف غير الطبيعية لهذه الأشياء.

(١) غير واضحة في الأصل.

(٢) غير واضحة في الأصل.

(٣) قياساً علىٰ الفرس والأغنام والسيف إذا غيرت عن وظائفها الجوهرية.

(٤) غير واضحة في الأصل.

(٥) يريد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

(٦) أي: وهبه الله قدرة علىٰ الحياة يستثمر بها وجوده.

(٧) من الجلود والأصواف والأوبار.

(٨) كالقرون والأنياب والأظلاف.

(٩) استخدمها بوضوح وكفاءة.

(١٠) أينال بروتيه وفكره ما له فيه مصلحة وحياة، وما يحتاج إليه من لباس وسلاح.

(١١) غير واضحة في الأصل.

أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤]. وإنّما صاروا «أَضَلَّ سَبيلاً» لأنّ الأنعامَ لا سبيلَ لها إلّا إلىٰ استفادةِ الفَضيلَة[١]، ولها سَبيلٌ إلىٰ ذلك، فإذا لَم يَفعلوا فهُم لا شكَّ أضَلُّ سبيلاً[٢]، وقد صَدقَ مَنْ قال:

ولَمْ أرَ في عُيوبِ النّاسِ شَيئاً كَنقصِ القادِرينَ علىٰ التَّمامِ[٣]

وكما يُبينُ فضيلَةَ الإنسانِ إذا عُنِي بتَزكِيةِ نَفسِهِ أنّ للإنسانِ قُوّتَين: قُوّةً بهيمِيّةً[٤] وهي ما يوجدُ فيه شَيءٌ مِن الشهوةِ والغَضَب، وقُوّةً مَلَكيّةً[٥] وهي ما يوجَدُ فيه مِن الفِكرِ والرؤيَة، ودُعِيَ إلىٰ تَزكيةِ قُوتِه الملكِيّةِ ومُخالفةِ قُوّتِها الشهويّةِ وفوض تزكِية جَوهرِها إليه[٦]. فإن فَعلَ فقد زَكّاها وإلّا فقدْ دَسّاها. وإلىٰ هذه الجُملةِ أشارَ بقَولِه: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾[٧]، وقرنَ الفَلاحَ بتَزكيتِها والخَيبةَ بتدْسيسِها، فثبتَ[٨]

---

(١) أي: اكتساب فضيلة الفكر والروية.

(٢) عامل الأنعام كالعقلاء.

(٣) الوافر، المتنبي، ديوانه شرح البرقوقي (٤: ٢٧٥).

(٤) القوة ذات العلاقة بالملذات الجسدية.

(٥) نسبة إلىٰ الملك وهو الملاك واحد الملائكة، وفي «تفصيل النشأتين»، ص٢١، يقول الراغب: «ونفس الإنسان واقعة بين قوتين قوة الشهوة وقوة العقل، فبقوة الشهوة يحرص علىٰ تناول اللّذات البدنية البهيميّة كالغذاء والسفاد والتغالب وسائر اللذات العاجلة. وبقوة العقل يحرص علىٰ تناول العلوم والأفعال الجميلة والأمور المحمودة العاقبة».

(٦) أي: ترك له حرية تزكيتها بالخير أوترك التزكية بالشر.

(٧) سورة الشمس، الآية ١٠، «ودساها»: قال الراغب في المفردات: أي دسسها أي أدخلها في المعاصي فأبدل من إحدىٰ السينات ياء نحو تظنيت وأصله تظننت.

(٨) أي: أصبح واضحاً بهذا الحديث أن لا شيء أقبح ...

أنْ لا شيءَ أقبحُ بالإنسانِ مِن أن يَكونَ (غفلاً)[١] مِن الفَضائِلِ الدُّنياويّـةِ[٢] والدينيّة[٣]، فإنّه متىٰ يَكونُ كذلك فهو مِن «الرجرَجةِ الذينَ يُكدِّرونَ الماء ويُغَلّونَ الأسعار»[٤]، إنْ عاشَ فغَيرُ حميدٍ وإن مات فغير فَقيد.

* * *

(١) وردت (غافلاً) في الأصل، ولعل الأصوب منها غفلاً أو عطلاً.

(٢) وهي الفكر والروية.

(٣) أي: رضي الله.

(٤) الذين يكدون الماء ويغلون الأسعار أي الذين ليس لهم أعمال ذات بال يقومون بها في المجتمع، والعبارة أصلاً تفهم من الحكاية التالية: «قال معاوية بن أبي سفيان لصعصعة بن صوحان: صف لي الناس، فقال: فارس يذب عن البيضة وزارع يسعىٰ في العمارة وعالم يشتغل بالديانة، ورجرجة بين ذلك تكدر الماء وتغلي السعر».
«الأمالي والنوادر»، أبو علي القالي، دار الكتب العلمية، بيروت، الجزء الأول، ص٢٥٧. ابن مسكويه، كتاب جاويدان خرد، ص١٥٠.

الفَصلُ الثّالثُ
فَضيلَةُ العَقلِ

اعلَمْ أنّ العقلَ آلَةُ كلِّ عِلمٍ وحُسْن، يُعرفُ به كُلُّ حَسنٍ وقَبيح[١]، ولأجلِ ذلك قيل: «العَقلُ مَلكٌ والخِصالُ رَعيّتُه، فإذا ضَعُفَ عن القِيام عليها وصلَ الخَلَلُ إليها».

وقالَ بُزرْجَمِهر[٢]: «العَقلُ مُشيرٌ رَشيدٌ وظهيرٌ سَعيد، مَن أطاعَه أنْجاه ومَن عَصاه أرْداه». وقيل: العاقِلُ مَن له علىٰ جَميعِ شَهوتِه رَقيبٌ مِن عَقلِه. فكلُّ فَضيلةٍ لَم (يُشرِفِ)[٣] العَقلُ عليها فهو بأن يُسَمّىٰ نقيصةً[٤] أُخرىٰ، وبأن يرغَبَ عنها أولىٰ. فإنها رَذيلةٌ سُمِّيتْ باسمِ فَضيلَة، وذَميمَةٌ نُعتَتْ بحميدَة، فإنّها مِظَنّة[٥] أن ترديه. ولذلك قيل: «مَن لَمْ يَكُنْ عَقلُه أغلَبَ خِصالِ الخيرِ عليه كان حَتفُه في أغلبِ خِصالِ الخَيرِ عليه»[٦].

---

(١) يقترب الراغب في هذا الإعظام من منزلة العقل من أقوال المعتزلة فيه.

(٢) حكيم فارس، وهو الذي قص تاريخ انتساخ كليلة ودمنة وترجمته من الهند «البيان والتبيين» (١ : ٧).

(٣) وردت في الأصل: (يوف)، وربما كان التصحيف هو السبب. أشرف علىٰ الشيء: تولاه وتعهده.

(٤) والنقيصة هي عكس الفضيلة. أي الفضيلة التي لا يظهر فيها أقر العقل تعد صِفةً سلبية لا إيجابية.

(٥) المظنة: موضع الشيء ومألفه الذي يظن كونه فيه، ترديه: تهلكه.

(٦) أورد المصنف هذه الكلمة في: «الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة»، ص٧٣. وقدم لها بعبارة قالت الحكماء، أي لا نفع في خير يريده الإنسان إن لم يكن هذا المراد هو العقل.

وقَدْ قيلَ: العَقلُ بلا أدبٍ فَقرٌ[١] والأدبُ بلا عَقلٍ حَتْف[٢]، فانظرْ كَم بَينَ الفَقرِ والحَتفِ!![٣]

وقيل: لا تَقتَدوا بفِعلِ مَن ليسَ له عقدَةٌ[٤] مِن عَقلٍ. ولأجلِ أنْ لا فَضيلةَ تُوجدُ في الإنسانِ مُعرّاةً مِن العَقل، وأنّ العَقلَ التّام لا يُوجدُ معرًّى مِن الفَضائِل؛ قال بَعضُ الحكَماء: أعْجبُ العَجبَ عَقلٌ لا كَرَمَ[٥] معه وكَرمٌ لا عَقلَ معه، تنبيهاً أن أحَدَهما لا ينفكُّ عنِ الآخر[٦].

وقيل: العَقلُ يُمسِكُ أزِمّةَ الفَضل[٧]، وأنّ هذا عَبَّر (عنه)[٨] ما رُوِيَ أنّه لما هَبَطَ آدمُ أتاه جِبريلُ فقال:

إن اللهَ أحضَرَك العقلَ والدينَ والحياءَ[٩] لتَختارَ واحداً مِنها، فقال:

---

(١) أي: يحتاج الإنسان المتعقل أن يتحلىٰ بالأخلاق الحميدة.

(٢) أي: يحتاج الإنسان المؤدب أن يكون ذا أخلاق عالية، فالمؤدب الجاهل والميت سواء.

(٣) يريد المصنف أن يستنتج أن الفقر يعادل الموت. وأحسب أنه كان يريد شيئاً غير هذه النتيجة، يريد أن يقول إن الجهل يعادل الموت، وأحسب أن الجملة الأولىٰ صوابها الأدب بلا عقل فقر. وعبارة الراغب تذكرنا بقول المتنبي (البسيط):

فقر الجهول بلا عقل إلىٰ أدب ... فقر الحمار بلا رأس إلىٰ رسن

ديوانه، بتحقيق البرقوقي، ج٤، ص٣٤٢.

(٤) العقدة من معانيها ما يمسك الشيء ويوثقه.

(٥) لعله يريد بالكرم: كرم الأخلاق.

(٦) يريد أن العقل والفضيلة متكافئان ومتلازمان.

(٧) أي: أن جميع ألوان الفضل وأنواع الخير أساسها ومحورها العقل.

(٨) غير موجود في الأصل، وفاعل الفعل عبر هو اسم الموصول «ما».

(٩) وردت غير مهموزة، وأثبتناها لئلا يحدث لبس مع الحيا: المطر.

اخترتُ العَقلَ، فقال: جبرائيلُ، عليه السّلامُ، للدّينِ والحياءِ: انْصرِفا، فقالا: أُمِرْنا ألّا نُفارِقَ العقلَ حَيثُ كان[١]!

* * *

(١) «الشفا في سيرة المصطفىٰ»، القاضي عياض (١: ٣٢٨)، «مناهل الصفا»، ص٢٩.

الفَصلُ الرّابعُ
أنواعُ العَقلِ(١)

العَقلُ عَقلان: غريزيٌّ صارَ الإنسانُ به إنساناً تميَّزَ بِهِ عن سائرِ الحيوانات، وإذا بلغَ الصبيُّ سنّاً مخصوصاً قوِيَ فيه(٢)، وتَعلّقَ به عند البلوغِ التكليف(٣)، وسمّتْه الأوائلُ العقل الهيولائي(٤)، وعقلٌ خارجٌ مستفادٌ بدروبِ الفِطَنِ ويجري مَجرىٰ العَقلِ الأوّل(٥).

وقد رُوِيَ عن أميرِ الـمُؤمِنين(٦): العَقـلُ عقلان: عقلٌ حادثٌ وعقلٌ

(١) أفرد الراغب لهذا العنوان فصلاً برأسه في مصنف آخر له: «الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة، ص٧٤».

(٢) عبارة المصنف في الذريعة كما يلي: «غريزي، وهو القوة المتهيئة لقبول العلم، ووجوده في الطفل كوجود النخل في النواة والسنبلة في الحبة»، ص٧٤.

(٣) التكليف: أمر يصدره من يملك التكليف للإلزام بواجب.

(٤) أي: الأولىٰ لم يجاوز خطوطه الأساسية ـ والهيولي عند القدماء: مادة ليس لها شكل ولا صورة معينة.

(٥) يفصل الراغب في العقل المستفاد في «الذريعة»، ص٧٤. علىٰ النحو التالي: «وهذا المستفاد ضربان: ضرب يحصل عليه الإنسان حالاً فحالاً بلا اختيار منه فلا يعرف كيف حصل ومن أين حصل، وضرب باختيار منه فيعرف كيف حصل ومن أين حصل وحصوله بعد اجتهاده في تحصيله».

(٦) ينسب الراغب لعلي بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ في «الذريعة»، ص٧٤. ما يأتي:

العقـــــل عقـــــلان ... مطبـــوع ومســـموع
فــلا ينفــع مســـموع ... إذا لم يـــك مطبـــوع
كــما لا تنفــع الشــمس ... وضوء العين مـمنـوع

نَحيزَة(١)، فإذا اجْتَمَعا في رجلٍ فذاك لا يُقامُ له(٢)، وإذا كانت منفردةً كانتِ النّحيزَةُ أولهما. وإنّما كان أولاهما؛ لأنّ المستفادَ لا يَحصلُ علىٰ ما يَجبُ إلّا لِمَنْ لَه الغَريزيّ(٣).

وممّا يَدلُّ علىٰ ذلك ما رُوِيَ عنِ النبيِّ عليهِ السلام، أنه قال: «إنّ اللهَ تعالىٰ لما خَلقَ العَقلَ قال له: أقبِلْ، فأقبل. ثُمّ قال له: أدبِرْ، فأدبر. ثُمّ قال: وعِزَّتي وجَلالي ما خَلقتُ خَلقاً أكْرمَ عليَّ مِنْك، بك آخذُ وبك أُعْطي»(٤). فهذا هو العَقلُ الغَريزيُّ. ولذلك نُسِبَ خلقُه لله تعالىٰ(٥).

ورُوِيَ أنّهُ عليه السّلام(٦)، قال: «ما اكتسب أحدٌ كَسباً أفضلَ مِن عَقلٍ يَهديه إلىٰ هُدًىٰ ويَردُّه عن رَدًىٰ»(٧)، وعَنىٰ بذلك العقلَ المستفادَ، لذلك جَعلَه كسباً للإنسان.

ومما يبينَ ذلك قولُه عليهِ السلام: «يا علي! إذا تقربَ الناسُ إلىٰ خالِقهم بأنواعِ البرِّ فتقرَّب إليه بأنواع العَقل، تَسبِقْهم بالدَّرجاتِ والزُّلفىٰ عِندَ الناسِ في الدُّنيا وعندَ الله في الآخِرَة»(٨). وإلىٰ هذا العَقلِ أشارَ النبيُّ ﷺ، وقيل: ما أعقلَ

---

(١) النحيزة: الطبيعة. يريد: مكتسب بالبيئة، ومطبوع بالوراثة والفطرة.

(٢) أي: لا يغلبه أحد.

(٣) فمن لم يهب العقل أصلاً لا يستطيع أن يتعلم.

(٤) يورد الراغب هذا الحديث في مصنف آخر، فضلاً عن «الذريعة»، وهو «تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين»، طبعة حلب، ص١٣. أورده الطبراني في «معجمه الكبير» و«معجمه الأوسط».

(٥) لأنه الذي خلقه الله للإنسان وميزه به عن الحيوان، بخلاف العقل المكتسب.

(٦) يريد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

(٧) أورد الراغب هذا القول ثانية في «الذريعة»، ص٧٥.

(٨) أورد الراغب هذا الحديث نفسه في كتاب «الذريعة في مكارم الشريعة» أيضاً. «حلية الأولياء»، أبو نعيم الأصفهاني (١ : ١٨). «ميزان الاعتدال»، ٦٥٢.

هذا النَّصرانيَّ! فقال: «العاقِلُ مَن وحَّدَ اللهَ تعالىٰ وعَمِلَ بطَاعَتِـه»[1]. ويجري في ذلك ما حَكَىٰ اللهُ عن أهلِ النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

* * *

(١) في «الذريعة»، ص٧٦، يورد الراغب هذا الخبر علىٰ النحو التالي: «... ولقلة الاعتداد بالمعارف الدنيوية، قال (يريد الحسن البصري) لرجل وصف نصرانياً بالعقل معه: إنما العاقل من وحد الله تعالىٰ وعمل بطاعته».

الفَصلُ الخامِسُ
أنْواعُ المعارِفِ المُكْتسبَةِ

المَعرِفةُ ضَربان: ضَربٌ يحصلُ بلا واسِطةٍ وضَربٌ بواسِطَة.

فما يَحصُلُ بلا واسِطةٍ نَوعان: مُستفادٌ من الحواسِّ كالـمعرفةِ بالألوانِ والأصْواتِ والمذوقِ والمَحسوس[١]، ومُستَفادٌ مِنَ العَقلِ بديهَةً مِن غَيرِ تَفْكير، كالعِلمِ بأنّ الاثنينِ والاثنين أرْبعَة، وأنّ كلَّ جنسَين[٢] في قياسِ أحدِهما إلىٰ الآخرِ إمّا أنْ يُساوِيَه أو يَزيدَ عليه أو يَنقُص، وأنّ المُساوِيَ لشيئَينِ مُتَساوِيَينِ هما وإيّاه مُتساوِيان[٣]، وأنْ لَيسَ بينَ الإيجابِ والسّلبِ واسِطَة[٤]، وأنّ الكُلَّ أعْظَمُ مِن الجُزء، وأنّ جِسماً واحداً لا يَكونُ في مَكانينِ في حالَته[٥]، وكُلُّ هذا لا يَحتاجُ مِنها

(١) أي: الوصول إلىٰ الحقائق المتصلة بالأشياء الأخرىٰ في ألوانها وأصولها وروائحها وطعومها وطبائع أجسامها عن طريق الحواس الخمس.

(٢) غير واضحة في الأصل. والجنسان: عنصران مختلفان في النوع.

(٣) في الأصل «الشيء هما متساويان» ويبدو أن بعض الكلمات حذفت من الأصل.

(٤) أي: إما النقص وإما الزيادة، وليس ثمة ما هو وسط بينهما.

(٥) لقد عدد المصنف مجموعة من البديهيات:

أ ـ اثنان واثنان يساويان أربعة.

ب ـ العلاقات بين الأشياء المتشابهة إما المساواة وإما النقص وإما الزيادة.

جـ ـ مساويات الأشياء المتساوية متساوية.

د ـ الأشياء إما إيجابية وإما سلبية لا غير.

هـ ـ الكل أعظم من الجزء.

و ـ الجسم في وقت واحد يشغل حيزاً واحداً لا اثنين.

إلىٰ مُقدِّمةٍ[١] بل يُدرِكُه العُقَلاءُ (بالمُلاحَظَةِ)[٢] كما يُدْرِكُ الحاسُّ المحسوسَ بنَفسِ مُباشَرتِه[٣].

وأمّا الذي يَحصلُ بواسطةٍ فهو الذي يُحتاجُ فيه إلىٰ تفكُّرٍ واستِنْباط، إمّا بواسِطَةِ الحاسّةِ أو بواسِطةِ العَقل، وكِلاهُما إمّا عَقليٌّ وإمّا مِلِّيٌّ[٤]، وإمّا أن تَقتضياه اقْتضاءً واحداً[٥].

فالعقليُّ معرفةُ الله تعالىٰ ومَعرفَةُ نُبوَّةِ نَبيِّه[٦].

والمِلِّيُّ معرفةُ كِتابِ الله وقراءَتُه وتَأويلُه وتفسيرُه وسنَّةِ نَبيِّه[٧]، وما اسْتُنبِطَ عَنْها من الفِقهِ والكلامِ والمواعِظِ والزهدِ وكُتبِ عِلمِ اللُّغة[٨]، والنَّحوُ آلةٌ لَها وعِمادُها.

والحِكَمِيُّ[٩] مَعرِفةُ الحِسابِ والنّجومِ والهَندَسةِ وعِلم الطبيعياتِ

(١) أي: تمهيد وشرح.

(٢) غير واضحة في الأصل.

(٣) المباشرة: العلاقة الحميمة بين الأشياء المادية أي التواصل المادي عن طريق الحواس.

(٤) مليّ، نسبة إلىٰ الملة وهي الشريعة والدين، ونسبة العلوم إلىٰ الملة يعني بها العلوم النقلية التي تكون العبادة عن طريق النصوص الدينية.

(٥) أي: ما لزم من علوم عقلية وعلوم نقلية معاً، وهو ما سماه الحكمي، بعد ذكره للعقلي والمليّ.

(٦) أي: معرفة الله تعالىٰ والتصديق برسالة نبيه عن طريق التأمل العقلي والوصول إلىٰ الثقة الإيمانية.

(٧) فهذه علوم نقلية تؤخذ بنصوصها.

(٨) وهذه علوم مساعدة تفهم العلوم النقلية السابقة. والنحو عامل أساسي لاستيعابها.

(٩) نسبة إلىٰ الحكمة وهي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ومن معانيها أيضاً العلم بالتفقه. وهذه العلوم الحساب والنجوم ... إلخ ذات علاقة بالحكمة في كتب التراث. وفي المفردات، ص٨٣، يقول الراغب: نسبة العلوم إلىٰ الحكمة كنسبة الأعضاء إلىٰ البدن في كونها أبعاضاً لها.

والفَراسةِ[١] والطّب، وقيل: المنطِقُ[٢] آلةٌ لها[٣].

والوُصول إلىٰ العُلومِ مِن ثَلاثِ جِهات:

الأول: من الموادِّ السماوِيّةِ[٤] وذلك حالَ البدءِ والإعادةِ وكيفيّـةِ الثوابِ والعِقاب وأصولِ العِبادات.

والثاني: مِن الدلائِلِ المُستَنبَطةِ[٥] وذلك كمعرِفَةِ حُدوثِ العِلمِ ومعرفة الله ومعرفةِ النبوّاتِ ومعرِفة وُجوبِ الجزاء.

والثالث: من طريق الـتّجاربِ[٦] كالفراسَـةِ وعبارةِ الرؤيا[٧] وعِلمِ القِيافَة[٨] والزجرِ[٩] والحسابِ والنجومِ ومعرفةِ أوقاتِ الزراعاتِ والتجاربِ

---

(١) الفراسة: المهارة في تعرف بواطن الأمور من ظواهرها، الاستدلال بهيئة الإنسان علىٰ أخلاقه.

(٢) هذا يدل علىٰ أثر المنطق في سائر العلوم العقلية في التراث.

(٣) يورد الراغب هذا الأمر المتصل بطرق استفادة العلوم، في «الذريعة»، ص١١١، بأسلوب آخر: «والطرق التي يستفاد منها العلوم أربعة أضرب: الأول المستفاد من بديهة العقل ومصادقة الحس ... الثاني المستفاد من جهة النظر إما بمقدمات عقلية أو بمقدمات محسوسة. الثالث المستفاد من خبر الناس إما السماع من أفواههم أو بالقراءة في كتبهم. الرابع ما كان عن الوحي...».

(٤) أي: التعلم عن طريق التلقين المباشر، وهو أبسط أنواع التعليم.

(٥) يعني: العلوم التي يتوصل إليها بالعقل والتأمل والفكر.

(٦) أي: ما نسميه اليوم العلوم التطبيقية وأساسها العلم المادي بالأشياء.

(٧) أي: تفسير الرؤيا.

(٨) هي (كما وردت في الذريعة، ص٨٩)، تتبع آثار الأقدام والاستدلال علىٰ السالكين، والاستدلال بهيئة الإنسان.

(٩) زجر الطير آثارها ليتيمن بشؤمها أو يتشاءم ببروجها.

وعامةَ وجوهِ المكاسِب[١]. وجميعُ الثلاثةِ ينالُه الإنسانُ بتوفيقِ الله تعالىٰ، والتوفيقُ عِمادُ كُلِّ مطلوب[٢].

* * *

(١) يريد الأشغال اليدوية التي يكسب بها الناس أقواتهم.

(٢) أي: توفيق الله للمتعلم أساس نجاحه.

الفَصلُ السادِسُ

ذِكرُ أفْضَلِ العُلومِ وأنْفعِها

النّاسُ في تَـحَرِّياتِهم[١] طُلّابُ الخَيرِ، وحَدُّ الخَيرِ[٢] هو الذي يَطلُـبُه الكُلّ. والدّلالَةُ علىٰ أنّ ذلك حَدُّه أنّ العَقلَ يحظُـرُ السّعْيَ والحركَةَ لا إلىٰ نِهايَة[٣]. وذلك مَعلومٌ بأوائِل[٤] العُقولِ، وكلُّ فعلٍ يفعلُه العاقِلُ فالقَصدُ به خيرٌ ما، فإذن الخيرُ هو المطلوبُ مِن الكُـلِّ، لكنْ رُبَّمـا أخْطأ طَالِـبُه وغَلِطَ خاطِـبُه. وقد صدَقَ أبو العتاهِية[٥] في قَولِه:

كـلٌّ يحـاولُ حيلـةً يرجـو بهـا ... دفْعَ المَضَــرَّةِ واجْـتلابَ المَنْفَعـةْ
والمـرءُ يغلـطُ في تَصـــرُّفِ حَالِـه ... فلرُبّما اختار العَناءَ علىٰ الدَّعـة[٦]

---

(١) تحرياتهم أي ما يتحرون من أعمال ويسلكون من أفعال. وفي «الذريعة»، ص٤٩. ترد عبارة المصنف علىٰ النحو التالي: فالناس في متحرياتها طالب الخير وهارب من شر. ثم يتمثل ببيتي أبي العتاهية الواردين هنا بعد قليل.

(٢) أي: تعريف الخير. وهذا التعريف، فيما يرىٰ الباحث، يتبع تفسير كلمة (الكل) وتبعاً لذلك يفهم التعريف، فقد يكون الكل عصابة تريد الشر مثلاً.

(٣) يريد أن طلب الخير له حدود، وليس علىٰ إطلاقه في حدود الزمان والمكان.

(٤) أي: بأبسط العقول.

(٥) شاعر عباسي، عاصر هارون الرشيد، عرف بأنه أكثر من شعر الزهد، توفي عام ١٨٩ هـ.

(٦) الكامل، وردت الغناء (بالغين) وصوابها (بالعين). لم أعثر علىٰ هذين البيتين في ديوان أبي العتاهية بتحقيق د. شكري فيصل. ولكنهما مذكوران في ديوانه طبعة دار صادر، بيروت ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م، ص٢٧١.

فإذا ثَبتَ ذلك[١] فيَسعىٰ المرءُ في ثَلاثٍ[٢]: إمّا لإنقاذِ النفسِ مِن الآلام[٣] وتَقريبِها للبَقاءِ السَّرمَديِّ[٤] والتعليمِ الأَبَدِيّ، وإمّا لإنقاذِ البَدنِ في دارِ الدُّنيا مِن الآلام[٥]، وإمّا لطلبِ مَن يَطيبُ بالبَدن، بما فيه صَلاحُه كالمالِ والجاه والأعوان[٦]. ولكلٍّ واحدٍ علمٌ يتوصّلُ به إليه. وأفضلُ العُلومِ ما يتعلَّقُ بأفضلِ المطلوب، وأفضلُ الـمطلوبِ ما إذا حَصلَ لم يَذهبْ وإذا اكْتسبَ لم يُغتَصب، وذلك هو البَقاءُ الأَبدِيّ.

وأمّا البَدنُ والمالُ والجاهُ والأعوانُ فعَوارٍ[٧] مستردة تزول عنها وتزول عنك، ومثلها ما قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.. الآية[٨] فثبت بذلك أنّ العلومُ ثلاثةٌ: أفضلُها علمُ الأديانِ الذي يُستفادُ به البقاءُ السّرمدِيُّ ثم علمُ الأبدانِ ثم عِلمُ الاكتساب[٩].

---

(١) أي: إذا صح ما قلنا فيما تقدم.

(٢) أي: في طلب أهداف ثلاثة، بل في طلب واحد من أهداف ثلاثة.

(٣) لعله يريد بالآلام الآثام.

(٤) السّرمديّ: الدائم الذي لا ينقطع.

(٥) الآلام التي تلم بالجسم من أمراض.

(٦) يلاحظ في هذه المساعي أن الأول منها لإنقاذ النفس والثاني لإنقاذ البدن والثالث للحصول علىٰ ما يطيب به البدن من نعم.

(٧) مفردها عارية وهي المستعارة لأمد زمني محدود.

(٨) يريد الآية ٢٤ من سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

(٩) بهذه الخلاصة الواضحة الموجزة يختصر المؤلف هذا الفصل في ترتيب العلوم حسب الأفضلية. فعلم الأديان هو الأساس يليه علم الأبدان ثم علم اكتساب الرزق والصناعات.

الفَصلُ السابعُ
ما يَحتاجُ إليهِ طالِبُ العِلمِ وتَعليمِه وتَعلُّمِه[١]

يحتاجُ طالبُ العِلمِ إلىٰ خَمسةِ أشياء: ثلاثةٍ سماويّةٍ وهي جَودةُ الطبع والكِفايةُ وطولُ العُمر، وواحِدٍ من جهته وهو العِنايةُ الصادِقة، وواحِدٍ من جهةِ مُعَلِّمِه وهو النصيحةُ الخالصَة.

أمّا جَودةُ الطبعِ فأنْ يَكونَ قَبولاً[٢]، ولما يَتَقبَّلُه حَفوظاً، ولِمَا يحفَظُه فَهِماً، ولما يفهمُه مُتَفكِّراً ولما يفكِّرُ فيه ذَكوراً، ويكونُ له مع ذلك ذهنٌ وذكاءٌ وفِطنَة، وكلُّ ذلك[٣] قُوىٰ لِلعَقْلِ كالآلات، ولا بُدَّ مِن تَحديدِها[٤] لتَصوُّرِ حَقائِقِها.

---

(١) يتناول الراغب مادة هذا الفصل في «الذريعة» تحت بابين:

أ ـ الباب الرابع والعشرين (ص ١١٦)، ويجعله تحت عنوان: ما يجب علىٰ المتعلم أن يتحراه.

ب ـ الباب الخامس والعشرين (ص ١١٩) ويجعله تحت عنوان ما يجب أن يتحراه المعلم مع المتعلمين.

وعلىٰ الرغم من هذا التفصيل الظاهري إلا أنه في هذه المخطوطة يبذل عناية أكثر في التقسيم والتبسيط وأخذ الفروع من الأصول.

(٢) صيغة فعول الواردة كثيراً هنا هي صفة مشبهة باسم الفاعل، تدل علىٰ الاتصاف بالصفة علىٰ وجه الثبوت، فقبول وحفوظ وذكور كلها كذلك.

(٣) يريد القابلية والحفظ والفهم والتفكر والذكر والذهن والذكاء والفطنة، وقوىٰ العقل أي القدرات العقلية ويسميها الراغب توابع العقل ويفرد لها فصلاً خاصّاً في «الذريعة»، ص٨٤، ويوضح كلاً منها توضيحاً معجمياً دلالياً مناسباً بتفصيل مناسب.

(٤) أي: تعريفها وتبينها.

أمّا الطبعُ فقوَّةُ تصوُّرِ المَعاني، وهو مِن طَبعِ الخاتم[١]، والحفْظُ ثباتُ صورةِ ما قُدِّم انطبَع في النّفس[٢]، والفهمُ إدراكُ ما قد حُفِظ[٣]، والفِكْرُ تلخيصُ ما قد فُهِم[٤]، والذّكرُ رفعُ الحِجابِ عن التفكُّر[٥]، والذهنُ تأمّلُ النفسِ لما يلزمُ مما فهمتَ وتفكرتَ فيه[٦]، والذّكاءُ سرعةُ تأمُّل ذلك، مِن ذَكتِ النّار[٧].

وأمّا الكِفايةُ فبأنْ يحصلَ له مِقدارُ بُلغَة[٨]، تُغنيه عن التكسُّبِ ولا يصيرُ بكَثرتِه مِشغَلةً عنِ التوفُّرِ علىٰ التّعلُّم[٩]، وفي [١٠] غِنىٰ النّفسِ ما يكفيكَ مِن سَدِّ حاجة، فإنْ زادَ شيئاً عن ذلك الغِنَىٰ صار الغَنيُّ به[١١] فقيراً.

وقال بزرجمهر: «لا تُورثوا الابن مِن المالِ إلا مقدارَ ما يكون عوناً له علىٰ طَلبِ العلم».

---

(١) أي: الطبع في اللغة هو طبع الخاتم وفي الاصطلاح تصور المعاني، وهو الأصل.

(٢) أي: أن الحفظ هو الاحتفاظ بما تصورته النفس عن الأشياء الحرفية.

(٣) الفهم: أي الوعي.

(٤) الفكر فيه تجميع لما تصور ووعته النفس وربما استنتاج منه وتعميم.

(٥) الذكر هو: التفكر بصوت عال مسموع.

(٦) أي: إدارة الرأي فيما تحصل من فكر لدىٰ النفس العاقلة.

(٧) كل هذه التعريفات المختصرة قد شرحت بتفصيل أوفىٰ في الذريعة، الصفحات ٨٤-٩٣.

(٨) البلغة: ما يتبلغ (يتقوت) به المرء من قليل الزاد المادي والمعنوي بما فيه العلم.

(٩) لعله يعني بالكفاية ـ هنا ـ توافر القدرة المالية التي تعين علىٰ طلب العلم ولا تزيده في الوقت نفسه، عن الحاجة، لئلا تصرف صاحبها عنه، كما يفهم من كلمة بزرجمهر التالية.

(١٠) لم ترد في الأصل.

(١١) لم ترد في الأصل. ويبدو أن ثمة خرماً في الأصل.

وأما طولُ العُمرِ فقد قالَ أَبُـقراط(١): «الصّناعَةُ طويلةٌ والعُمرُ قَصيرٌ والتجربةُ خَطرٌ والقضاءُ عَسـرٌ»(٢)، هذا في عِلمِ الأبْدانِ فَما ظنُّك بعِلمِ الأدْيانِ؟ واحْتيجَ(٣) إلىٰ طولِ العُمرِ فالعَقلُ لا يُسْتَحكَمُ إلّا بالتّجربةِ، والتّجربةُ لا تَحصلُ إلّا بمدَّةٍ مَديدَةٍ(٤) من العُمرِ تختلِفُ الأحْوالُ بها.

وأما العِنايةُ(٥) فبمراعاةِ أشياء:

أولاً: بَعضُها مُعتبرٌ في نفسِه.

ثانياً: وبعضُها بإضافتِه إلىٰ العِلم.

ثالثاً: وبعضُها بالإضافةِ إلىٰ المُعلِّم.

أولاً: والمعتبر في نَفسِه ما قالَه بعضُ الحُكماء: لا يُمْكِنُ لأحدٍ لأنْ يَعيَ(٦) العُلومَ الشريفةَ حتّىٰ يمحُو مِن ذِهنِه الأمورَ الدنيّة(٧) فتصلُحُ أخلاقُه كُلُّها. ولذلك قال أَبُقْراط: «إنّ الأبدانَ غَيرَ النقيّة كلّما زدتها غِذاءً(٨) ازدادَت داء».

---

(١) طبيب إغريقي قديم، يسمىٰ أبا الطب.

(٢) لعله يعني بالصناعة: الأعمال المطلوبة من بني الإنسان. والتجربة: المعاناة والتفاعل مع الأحداث في الحياة والصبر عليها. والقضاء: الامتحان.

(٣) احتيج: بالمبني للمجهول، ونائب الفاعل المحذوف طالب العلم. وقد افتتح المصنِّف هذا الفصل بقولِه: «يحتاج طالب العلم ...».

(٤) أي: الطويلة.

(٥) التي ذكرها في مفتتح الفصل.

(٦) غير واضحة في الأصل.

(٧) مما يتصل بالإفراط في ملذات الدنيا من ملبس ومأكل ومنكح. والدنية: الدنيئة، بتخفيف الهمز.

(٨) وردت في الأصل عذا. والأبدان غير النقية هي المريضة جسدياً.

وقيل: لَيستْ للعُلومِ الظاهِرَة(١) إلّا القُلوبُ الطّاهِرَة.

صِفاتُ المُتعلِّم:

ثانياً: فما يُعتَبرُ بإضافتِه إلىٰ العِلمِ فحَقُّه:

١ـ أن يَعرفَ المرءُ الغرضَ الذي لأجلِه إليه سَلَك(٢).

٢ـ ويعرفَ أقصرَ الطرق إليه.

٣ـ وأن يقدِّم ما لا يَسعُ جهلُه(٣) إذا الأهَمُّ المعتبرُ في كلِّ فنٍّ بالأُصولِ قَبلَ الفُروعِ(٤)، فقد قيل: ضَيَّعَ قومٌ الوُصولَ(٥) بتَركِهم الأُصول، وذلك أن يَطلُبَ جِنسَ العِلمَ قَبلَ فَرعِه ونَوعَه قبلَ جُزئياتِه. فالجزئياتُ يَعجِزُ عن ضَبطِها(٦).

---

(١) العلوم الظاهرةُ أي: العلوم الشريفة، من ظهر الشيء إذا انتصروا بأن أكثر من غيره من قوله تعالىٰ: ﴿فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ وخلاصة ما يعتبره المتعلم في نفسه أن يسمو بنفسه وبعلمه عن مستوىٰ ملذات الدنيا التي يلهث في أثرها بسطاء الناس وجهلتهم.

(٢) يعدد المصنف تحت هذا العنوان «ما يعتبر بإضافته إلىٰ العلم» الأمور التي ينبغي أن يراعيها المتعلم أثناء تعلمه، ويمكن أن توضع تحت عنوان «صفات المتعلم» الذي أضفناه وأضفنا الأرقام في بدايات النقط.

(٣) أي: أن يقدم من العلم أهمه وأكثره خدمة له أن يقدمه علىٰ ما هو أقل أهمية وخدمة، وهذا هو العلم الذي لا يستطيع أن يجهله ويعيش دونه.

(٤) وهو الذي يقدمه هي أساسيات العلوم لا جزئياتها، وقوانينها العامة لا تفصيلاتها.

(٥) أي: الوصول إلىٰ الأهداف التي يبتغونها.

(٦) من المؤكد أن المصنف لا ينفي عن المتعلم البحث عن الجزئيات في العلوم علىٰ إطلاقها لكنه ـ كما يبدو ـ ينكر عليه أن يطلبها قبل الوقوف علىٰ أصولها وأسسها العامة، فالكل قبل الجزء، والعام قبل الخاص.

٤ـ وأنْ لا يطمع في بُلوغِ قاصِيَتِه(١) فقد قالَ أرسْطاطاليس: «ما طلَبي العِلمَ لبلوغِ قاصِيتِه والاستيلاءِ علىٰ غايَتِه لكنْ ما لا يسعُ العاقِلَ(٢) جَهلُه».

٥ـ وأنْ لا يَنْزِعَ بهمّتِه مِن العِلمِ إلىٰ ما لَيسَ في طَوقِ البشرِ إدراكُه(٣)، فذلك جَهلٌ مُفرط.

٦ـ وأنْ يَتخَطّىٰ ما تَيسَّرَ مِن بُلوغِه(٤)، مُتَحرِّياً قولَ الشاعر(٥):

إذا لم تَسـتطعْ شـيئاً فدَعْـه ... وجـاوِزْه إلىٰ مـا تَسـتطيعُ(٦)

٧ـ وأنْ يتناولَ إن أمكَنَ طُرَفاً من عامةِ العُلوم(٧). فقد رُوِيَ عن أميرِ المُؤمنين: العِلمُ أكثرُ مِن أن يُحصىٰ فخُذوا مِن كلٍّ عِلمٍ أحسَنَه.

٨ ـ وأنْ لا يَتجاوزَ باباً إلىٰ بابٍ ويعلو(٨) إلىٰ عِلمٍ حتّىٰ يحكمَ الأوَّل، فازدحامُ العِلمِ علىٰ القَلبِ مُضِرٌّ له للفَهْم(٩).

---

(١) أي: أبعد نقطة فيه وفي التخصص في جزئياته.

(٢) أي: ما لا يستطيع العاقل أن يستغني عنه.

(٣) أي: لا يتطلب هدفاً غير ممكن التحقيق علىٰ يد أبناء البشرية.

(٤) أي: أن لا يحاول أن يتجاوز ما لم يفهم.

(٥) أي: مقتدياً به.

(٦) الوافر، عمرو بن معدي كرب، ديوانه جمع مطاع طرابيشي، ص١٢١. «الأصمعيات»، ص١٧٥. مثل به الخليل بن أحمد لمن سأله عن علم العروض ولم يفهم الجواب عنه. وقد أورده الراغب في «مجمع البلاغة» (١: ٦٢).

(٧) أي: الأخذ من كل علم بطرف.

(٨) في الأصل «وعلا» بعطف الماضي علىٰ المضارع، ولعل الأصوب «يعلو».

(٩) يريد ألا يتجاوز المتعلم علماً ليطلع علىٰ آخر إلا بعد استيعاب الأول تماماً.

٩ـ وأنْ يكونَ ما يحصُله أكثرَ عِنايةً مِن الاستِكْثار مِمّا يعلَمُه[١]. فقد قيل: الشّجَرةُ لا يَثنيها الحَملُ إذا كانتْ ثَمرتُها نافِعَة.

١٠ـ وأنْ يوصِدَ علىٰ نَـفسِه ما قَد أتْقنَه لِئلّا يـنِدّ[٢]، فآفةُ العِلم نسيانُه. قالَ الحَسنُ[٣]: «اقدعوا[٤] هذه الأنْفُسَ فإنّها طُلعةٌ، وحادِثوها[٥] فإنّها سَريعَةُ الدثور».

١١ـ وألّا يُعادِي ما جَهِلَه مِن العُلوم. فقد قيل: «النّاسُ أعْداءُ ما جَهِلوا». وقال تعالىٰ: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩].

١٢ـ وألّا يُبالِيَ بما يَنالُه مِنَ التّعب؛ فالجَواهِرُ الكَريمةُ[٦] لا يوصَلُ إليها إلّا

---

(١) لعله يريد من المتعلم أن يُعنىٰ بنوعية العلم الذي يحمله لا بكميته.

(٢) أن يتحفظ ما تعلمه وراجعه بين الحين. ويند أن يخرج من دائرة الحفظ فينسىٰ، وندّاً ليعيد إذا شرد.

(٣) الحسن البصري (٢١ - ١١٠ هـ) الحسن بن يسار البصري، إمام أهل البصرة، أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك. قال الغزالي: كان الحسن البصري أشبه الناس كلاماً بكلام الأنبياء، وأقربهم هدياً من الصحابة.

وقد وردت هذه الكلمة للحسن البصري في «الكامل» للمبرد (١: ٢٠٩ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم) علىٰ النحو التالي: «حادثوا هذه القلوب فإنها سريعة الدثور، وأقدعا هذه الأنفس فإنها طلعة، وإنكم إلا تقعدوها تنزع بكم إلىٰ شر غاية».

(٤) اقدعوا: من القدع وهو الكف والمنع. طلعة: كثيرة التشوف والتنزّي إلىٰ ما ليس لها.

(٥) حادثوا قال المبرد في «الكامل» ١: ٢٠٩ حادثوا: مثل: معناه أجلوا واشحذوا تقول العرب: حادث فلان سيفه إذا جلاه وشحذه. الدثور: الدروس.

(٦) لم تكن واضحة في الأصل، والجواهر الكريمة أي الكنوز الأصيلة للأشياء والعناصر، وقد تكون مستخرجة من الدر في البحار أو الأحجار الكريمة كالعقيق مثلاً علىٰ اليابس.

بالمُخاطَرةِ، والعِلمُ لا يُعطيكَ بَعضَه حتّىٰ تُعطِيَه كُلّك[١]، فإنْ أعْطيتَه كُلَّك فأنتَ مِن إعْطائِه[٢] إيّاكَ بَعضَه علىٰ خَطَر.

١٣ـ وأنْ لا يُحمِّلَ نَفسهُ فوقَ ما في وُسعِها معتبراً قولَ النبيِّ ﷺ: «إن المُنبتَّ لا أرْضاً قَطعَ ولا ظَهْراً أبقىٰ»[٣]، وقولَ عُمر: نَفْسُك مطيتُك!![٤] إنْ رَفقتها[٥] اضطلَعَتْ وإن تَبعْتَها انْقطعَتْ.

١٤ـ وأنْ يحمِيَها ويُروِّحَها إذا خافَ مَلالَها، فقد قالَ مُعاوِيَة: لِكلِّ نَفسٍ مَلَّةٌ[٦] فاحْموها، وقيل: رَوِّحوا القُلوبَ تعي بالذكر، والقَلبُ إذا أُكرِهَ عَمِي[٧].

١٥ـ وأنْ لا يَستَنكِفَ مِن سؤالِ ما جَهلَه. فقد قيلَ لدَغْفَل[٨]: بم أدرَكْتَ

---

(١) أي: أنه يحتاج إلىٰ تفرغ.

(٢) وعبارة الراغب عن هذه الفكرة في «الذريعة» (ص ١١٧)، علىٰ النحو التالي: «العلم لا يعطيك بعضه حتىٰ تعطيه كلك، فإن أعطيته كلك فإنك في إعطائه إياك بعضه علىٰ خطر». وكأنّما إياه عنىٰ من قال:

خدم العلىٰ فخدمته وهـي التـي ... لا تخـدم الأقـوام مـا لم تخـدم

أي: أن المتعلم عليه ألا يتكبر علىٰ العلم وعليه أن يتفرغ لطلبه، ولو قد تفرغ له فربما أدىٰ إليه حقه، ولكن العلم لن يقدم للمتعلم كل إمكانياته، ويظل هذا القدر القليل منه كافياً.

(٣) رواه البزار عن جابر وقال: حديث ضعيف. جامع السيوطي، الحديث ٢٥٠٩.

(٤) بالرفع نجعل المطية مبتدأ مؤخراً وخبرها نفسك علىٰ التشبيه. ويجوز أن تنصبا علىٰ أسلوب الإغراء، الزم نفسك والزم مطيتك.

(٥) المألوف أن يتعدىٰ الفعل رفق بحرف الجر لا مباشرة كما ذكر المصنف. اضطلعت: أي نهضت بمسؤولياتها.

(٦) الملة: بفتح الميم من يمل إخوانه سريعاً، ويقال رجل ذو ملة وذو ملل.

(٧) ربما يروىٰ بهذا النص وبنص آخر: روحوا عن هذه القلوب فإنها إذا كلت عميت.

(٨) هو دعفل بن حنظلة بن زيد الذهلي الشيباني، نسابة العرب. يضرب به المثل من معرفة الأنساب. وفد علىٰ معاوية وكان مؤدباً لابنه يزيد، توفي عام ٦٥هـ (الزركلي، الأعلام).

هذا العِلم؟ فقال: بلِسانٍ سَؤولٍ وقَلبٍ عَقولٍ. وقالَ أميرُ المُؤمنين: «العِلمُ خِزَانةٌ ومِفْتاحُها السُّؤال»[١].

١٦ـ وأنْ لا يَستنْكِفَ مِنَ التَّعلُّمِ في الكِبَرِ كتعلُّمِه في الصِّغر. فقد قيلَ لحكيم: أيحسُنُ بالشيخ التّعلُّم؟ فقال: إنْ كانَتِ الجَهالةُ به تَقْبحُ فالعِلمُ به يَحْسُن. وقيلَ لآخَر: مَتىٰ يحسُنُ بالإنْسانِ التَّعلُّم؟ فقال: مَا حَسُنَتْ بِه الحَياة![٢].

١٧ـ يجبُ أنْ يَكتُبَ ممّن يَسمَعُه مِمَّا يَجهَلُه. فقد قيل: قَيِّدوا العِلمَ بالكِتابة. وقيل: العِلمُ تِبرٌ فاجْعلوا الكُتبَ له حُماةً (والأقلامَ) وُعاة[٣].

١٨ـ ولا يقتصرُ علىٰ الكِتابةِ حتّىٰ يضمنَ مُستحسَنَه الصّدْر[٤]، فلا خيرَ في عِلمٍ لا يَعبرُ بكلِّ الوادي ولا يَحضرُ معك ولا يَدخلُ معك الحمام ولا (يجتازُ إلىٰ)[٥] النّادي. ومَن علمِه في سفطه[٦] قلّ علىٰ الأضدادِ احتجاجُه وكَثُرَ إلىٰ الكُتبِ احتياجُه[٧].

١٩ـ ويجبُ أنْ لا يطلُبَ نَوعاً مِن العلمِ في غيرِ جِنسِه[٨] نَحوَ أنْ يطلُبَ مِن النّحوِ أحكامَ الفِقْه، أو مِنَ الفِقهِ أحكامَ الطِّبّ. فمن طلَبَ شَيئاً مِن غَيرِ مَوضِعِه لم يَظفَرْ بمطْلَبِه.

---

(١) صورة معبرة لمكانة السؤال طريقاً للعلم.

(٢) وهذا ما يسمىٰ في العصر الحاضر بالتربية المستديمة أو التعلم الذاتي.

(٣) هذه دعوة للكتابة في حمل العلم عن الشيخ.

(٤) أي: لا يكتب إلا ما يحسن فيسهل حفظه في الصدور.

(٥) أي: يبقىٰ معك علىٰ الزمن.

(٦) السفط: وعاء يوضع فيه الطيب وما أشبهه.

(٧) وهذه دعوة تتمة للأولىٰ في حمل العلم، بعدم الاكتفاء بالكتابة بل يحمله في الصدور شفاهاً.

(٨) وهذه دعوة للتّخصص الدقيق في التعلم، وعدم الخلط بين العلوم، فلكل مصدره.

٢٠ـ وأن لا يَحمِلَه وُقوعُ خطأ مِن مُتعاطٍ علىٰ الحكم بفَسادِ ذلك العِلمِ وتركِ الانتفاعِ به، كِفاءَ ما تَفعَلُه العَوامُّ، إذا أرادوا طبيباً أو مُنجِّماً أخْطأَ في حُكمِه، استرذَلوا الطبَّ والنّجوم، بلْ يجبُ أنْ يعْبُرَ صحّةَ كلِّ صِناعةٍ وسُقْمَها بما يدُلُّ عليها في ذاتِها[١]، فمُتعاطيها لا يدُلُّ علىٰ عَجزِها، إذ لا مُناسَبةَ بَينَهما غير أنْ يحكي بتَعاطيها إمّا صادِقاً أو كاذِباً.

٢١ـ وحقُّ مَن بَرِعَ في علمٍ أنْ لا يَستكثِر عِلمَ نَفسِه بالإضافةِ إلىٰ العِلمِ في نَفسِه بل بالإضافةِ إلىٰ عِلمِه الذي يَتَعاطاه[٢]، فقد قال الحَسنُ[٣] فذكر قولَ الله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]: كلُّ عالمٍ يَظنُّ أنّ عِلمَه كَثير[٤]، واستسخفَ عَقلَ عُدي بن الرِّقاع[٥] في قوله:

وعلِمتُ حتّىٰ ما أُسائِلُ واحِداً ... عَن عِلمِ واحِدَةٍ لكَيْ أَزدادَها[٦]

---

(١) وهذه دعوة علمية للحكم علىٰ العلوم، لا من خطأ وقع فيه بعض العلماء، بل من طبيعة العلم نفسه، فخطأ الفرد لا يحسب علىٰ العلم.

(٢) أي: علم المتعلم الذي وقف علىٰ جزء تفضيلي من العلم ألا يرىٰ هذا الجزء كثيراً بالقياس إلىٰ سائر أجزاء العلم وهي كثيرة جداً، وعليه ألا يرىٰ الجزئية التي أتقنها أكثر مما لم يتقنه من العلم الذي يدرسه الناس. الهاء في نفسه الأولىٰ تعود للمتعلم وفي الثانية للعلم.

(٣) يريد الحسن البصري، وقد سبقت ترجمته.

(٤) أي: أن العلماء يخطئون فيظنون أنهم أوتوا نصيباً كبيراً من العلم، بخلاف الآية القرآنية الكريمة.

(٥) عدي بن الرقاع من قبيلة عاملة وهي حي من قضاعة وكان ينزل الشام.

(٦) الكامل، عدي بن الرقاع (٩٥هـ)، ديوانه، جمع وشرح حسن محمد نور الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٣٧، وفيه:

وعمرت حتىٰ لست أسأل واحداً ... عن حرف واحدة

(الأغاني، دار الكتب ٩: ٣١٧، الشعر والشعراء، ابن قتيبة ٣٩٣).

حتىٰ قال بعضُ العُلَماء: وددتُ أن أراه وأصفعَه وأعرِكَ أُذُنَه وأمرّ به علىٰ عِلمٍ فعَلِمَ[١] وأُرِيَه أنّه لا يعرفُ شَيئاً مِنها[٢] إلّا الشِّعرَ الذي يُوازِنُه[٣] بل يَفوقُه فيه عالِم.

٢٢ـ وحَقُّه[٤] أنْ يجرِيَ في طَلَبِ العِلمِ بالاقتداءِ[٥] بالحقِّ لا بتقليدِ الرجالِ وتَقليدِ الأسْلافِ[٦] أو طَلَبِ الرياسةِ[٧]. فقد قالَ أميرُ المؤمنينَ عليٌّ كرَّم اللهُ وَجهه: «يا حار[٨]، مَلبوسٌ[٩] عليك، إنّ الحقّ لا يُعرفُ بالرِّجالِ اعرفِ الحق تَعرفْ أهْلَه». وقال تعالىٰ في ذَمِّ التقليد: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ * قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣ -٢٤].

وقال عليه السّلامُ في ذَمِّ مَن طَلَبَ العِلمَ بالرّياسةِ[١٠]: «ومن[١١] تَعلَّم

---

(١) أي: أعرض عليه العلوم التي لا يعرفها علماً فعلماً.

(٢) الضمير راجع إلىٰ العلوم التي يسير بها عليها فلا يعرف شيئاً منها.

(٣) أي: بضبط وزنه.

(٤) الهاء تعود علىٰ من طلب العلم.

(٥) وردت هكذا دون حرف جر، وربما كان الصواب أن تسبق: بحرف جر: الباء أو علىٰ.

(٦) الحق يعرف بالحق أيّاً كان مصدره، وقائله، وليس لأنه صدر عن شخص ما من القدماء أو المحدثين. وهو نداء علمي جسور يقف مع حرية الفكر وحرية الكلمة، لا يحابي النقل علىٰ العقل.

(٧) ربما ينافق بعض العلماء في مواقفهم مع بعض رجال السلطة طلباً للجاه والرئاسة.

(٨) لعلها منادىٰ مرخم، وأصلها حارث.

(٩) أي: التبس عليك الأمر، فبدلاً أن تعرف الحق من نفسه تأثرت فيه بمن قالوه.

(١٠) وردت هكذا بحرف الجر (الباء)، وطلب العلم بالرياسة أي بالمظاهر الدالة علىٰ الجاه لا من أخذ العلم من مصادره الأصلية: العلماء والكتب.

(١١) وردت من دون الواو، وأحسب أن الواو سقطت في النسخ.

(للزينةِ دخل النّار)[1] ليُباهِيَ به العلَماءَ أو يُمارِيَ به السفهاءَ أو يأخُذَ من الأمراءِ ويَميلَ به وُجوهَ الناسِ إليه».

٢٣ـ وأنْ يكون قصدُه إلىٰ العمل[2] فقال[3] النبيُّ عليه السلام: «إني أَعُوذُ بك مِن عِلمٍ لا يَنفعُ[4] وقَلبٍ لا يَخشعُ ونَفسٍ لا تَشبَع»[5].

ثالثاً: وأمّا ما هو مُعتَبرٌ بإضافتِه إلىٰ[6] المعلِّم:

١ـ فأنْ يعظِّم مُعلِّمه ويحبَّه[7]. فقد قيل للإسكَندَر[8]: معلِّمك أحبُّ إليك أم أبوك؟ فقال: مُعلِّمي، لأنّه سَببُ حَياتي الباقيةِ وأبي سَببُ حياتي الفانيةِ[9]. وقال عمرُ رَضِيَ اللهُ عنه: وقِّروا مَن تَعلَمونَ مِنه[10].

٢ـ وأنْ لا يَستَنكِفَ ممَّن يَتعلَّم مِنه[11] فقد قال عليه السلام: «الحكمةُ

---

(١) ما بين القوسين ورد في الأصل وأحسب أنه مقحم علىٰ السياق من النساخ.

(٢) وليس إلىٰ العلم فقط.

(٣) قال هنا كررت ثانية لطول الفصل، فقول الرسول عليه السلام، لم يورد بعد قال الأولىٰ قبل سطرين، ولذلك كررت هنا.

(٤) سقطت «لا» من الأصل، رواه الطبراني في الصغير ١: ١٢٨، عن أبي هريرة بالنص التالي: «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه علمه».

(٥) عن زيد بن أرقم: «... اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها» رواه مسلم، شرح النووي، ج ١٧.

(٦) أي: ما علىٰ المتعلم أن يراعيه في علاقته بمعلمه.

(٧) التعظيم: الإكبار في نفسه وأمام الناس.

(٨) الإسكندر المقدوني، القائد الإغريقي الذي غزا الشرق قبيل ميلاد المسيح.

(٩) ثمة مقارنة بين الأب الحقيقي والأب الروحي.

(١٠) أي: احترموا كل من تفيدون منه علماً.

(١١) أي: علىٰ المتعلم من أي مصدر يمكن أن يستفيد ولو كان حقيراً في نفسه أو أمَام الناس.

ضَالَّةُ المؤمِن حيثُ وَجدوها قَيِّدوها(١)»، ورُؤِيَ حَكيمٌ يكْتبُ عَن مُخَنَّثٍ(٢) شيئاً فعوتِبَ في ذلك فقال: «الجَوهَرةُ النَّفيسَةُ لا تَشينُها سَخافةُ عارِضِها ودَناءَةُ بائِعِها»، وقال حَكيم: «تعلَّمتُ مِن كلِّ شيءٍ أحْسَنَه حتّىٰ مِنَ الخِنزيرِ بُكورَه في حاجَتِه ومِن السنَّورِ لُطفَه في مَسألَتِه ومِن الكَلبِ نُصحَه لأهْلِه»(٣).

٣ـ وأنْ لا يَستَنكِفَ مِن جَفوةٍ(٤) تَنالُه مِن مُعلِّمِه وخِدمَةٍ يَبذُلُها. فقد قيل: «إذا دَبَّرتَ لصَلاحِك فتَشكَّل بشَكلِ المَريضِ للطَّبيبِ، فمَن جرَّعَك المُرَّ لتصِحَّ خَيرٌ ممَّن (يوجِرُك)(٥) الحُلوَ لتَسقُم».

٤ـ وأنْ لا يَسألَه تَعنُّـتاً(٦). فقد قيل: «إذا جالَستَ عالِـماً فاسأَلْه تَفقُّهاً لا تعَنُّـتاً».

(١) لم أعثر علىٰ حديث نبوي شريف بهذا النص.

(٢) المخنث: من لان واسترخىٰ وتثنىٰ وتكسر.

(٣) في «عيون الأخبار» لابن قتيبة، مجلد٢، ص١٢٣. وزارة الثقافة العامة، قيل لبزرجمهر بم أدركت ما أدركت من العلم؟ فقال: «ببكور كبكور الغراب وحرص كحرص الخنزير وصبر كصبر الحمار». وفي المجلد الأول منه، ص١١٥: «كان عظماء الترك يقولون: القائد العظيم ينبغي أن يكون فيه خصال من خصال الحيوان: شجاعة الديك وتحنن الدجاجة وقلب الأسد وحملة الخنزير وزوغان الثعلب وختل الذئب. وكان في صفة الرجل الجامع له وثبة الأسد وزوغان الثعلب وختل الثعلب وبكور الغراب وجمع الذرة». «عيون الأخبار»، مجلد، ص١١٥.

(٤) الجفوة: الإعراض.

(٥) كذا في الأصل، ولعلها يوجرك من الوجار وهو الفتحة، أي يضع في فتحة فمك.

(٦) تعنتاً: مصدر منصوب مفعول لأجله، وسؤال الإعنات أي الإزعاج المقصود لذات السؤال لا من أجل التعلم.

وأمّا المعلِّم النّاصِح[١] فحَقُّه:

١ـ أن يَرىٰ بَثَّ العِلمِ واجِباً. فقد قالَ عليه السلام: «منْ عَلِمَ عِلماً فكَتمَه أَلْجَمَهُ اللهُ تعالىٰ يومَ القِيامةِ بِلجامٍ مِن نار»[٢].

وقال: «لا تَمنَعوا العِلمَ فإنّ في ذلك فَسادَ دينِكم»[٣]. وتلا قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ ﴾... الآية[٤].

٢ـ وأَن يُعامِلَ كُـلًّا مِن المُتعلِّمينَ بعِلمِه لا يُفضِّل غنيًّا علىٰ فقيرٍ. فقد قال أبو العاليةِ[٥] في قولِ الله: ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾[٦] إنّ معناه ليكنِ الفَقيرُ والغنيُّ عِندك في العلمِ سَواء.

---

(١) يصل المصنف إلىٰ الحديث عن المعلم وواجباته بعد أن فرغ من المتعلم وواجباته.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، الباب التاسع، باب «كراهة منع العلم» الحديث رقم ٣٦٥٨.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سئل عن علم ثم كتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار».

أخرجه الترمذي في سننه كتاب العلم باب (٣): «ما جاء في كتمان العلم» الحديث ٢٦٥٤. وقال أبو عيسىٰ: حديث أبو هريرة حديث حسن.

(٣) لم أعثر لهذا القول علىٰ أثر في كتب الحديث النبوي الشريف.

(٤) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩].

(٥) أبو العالية، رفيع بن مهران الرياحي البصري، الإمام المُقْرِئ الحافظ المفسر. أدرك زمان النبيّ ﷺ وحفظ القرآن وقرأه علىٰ أبي بن كعب. وتصدر لنشر العلم فذاع صيته. أخذ عنه القراءة شعيب ابن الحجاب وآخرون منهم أبو عمرو بن العلاء فيما قيل. وكان كثير العلم صاحب سنة، زاهداً ورعاً، مبتعداً عن الفتن. الموسوعة العربية العالمية (١٦: ٦٥).

(٦) في سورة لقمان، الآية ١٨. ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴾.

٣ـ لَكنْ يَجِبُ أنْ لا يظلِم العِلمَ بوضعِه في غيرِ مَوضعِه[١]. فقد قيل: «لا تَضَعوا الحكمةَ في غيرِ أهْلِها فتظلِموها ولا تَمنعوها أهلها فتَظلِموهم»[٢].

٤ـ وأنْ يـختارَ لكـلِّ متعلِّمٍ ما يليق بِطَـبْعِه، فقد سُئِـلَ بعضُ تلامِـذةِ أرسطاطاليسَ عن عِلمٍ لم يَلِق به، فقال: «لكلِّ تركيبةٍ[٣] غرسٌ ولكلِّ بناءٍ أُسّ، وإنّ هذا العِلمَ لا يُدركُ بسلاليم[٤] طبعِك».

٥ـ وأنْ يُرتِّبَ ما يعلَمُه تَرتيباً يَسهُلُ عليهِ إدْراكُه[٥].

٦ـ وأنْ لا يَكونَ مع المتَعلِّم ذا فظاظةٍ فيعْنُفَ ولا ذا سَلاسةٍ فَيسْتَخِفّ[٦].

٧ـ وأن يُراعيَ ما قالَ بعضُ الحكماء: إذا أُزرتَ إنساناً يَتزَيّدُ[٧] فلا تَتَشكّلْ بشكْلِ عدُوِّه لكنْ تشكَّلْ بشَكْلِ طبيبٍ لمَريض[٨].

٨ ـ وأنْ تَكونَ آراؤُه صَحيحَة، لا يربعُ علىٰ تِلميذِه الباطِل، بل غَرَضُه

---

(١) أي: من قبيل وضع الحكمة في أوفاه الخنازير، كما يقول المثل (لا تلق الدر أمام الخنزير).

(٢) أي: وضع الكلمة المناسبة لمن يستحقها: رفعة وسخفاً.

(٣) لم ترد واضحة في الأصل، يريد بالتركيب، الشجر، وربما يفهم من هذه الصفة في المعلم ما تسميه اليوم مراعاة الفروق الفردية في المتعلمين أو تفريد التعليم.

(٤) لعله يريد البدايات.

(٥) وهذه دعوىٰ لتنظيم المعلومات لتسهيل إدراك الناس لها.

(٦) التوسيط بين الفظاظة والتبسط.

(٧) غير واضحة في الأصل، ولعلها يتزيد أي يريد أن يتعلم. وقبلها أزرت أي زارك إنسان وهي غير واضحة في الأصل.

(٨) نلاحظ أن المعلم يتشكل للمتعلم بشكل الطبيب للمريض، وكان المصنف قد طالب المتعلم أن يتشكل للمعلم الشكل المريض للطبيب.

نُصرَةُ الحَقِّ وإفاضَةُ الخَيرِ، لا مُغالبةُ قِرنٍ واكْتِسابُ مال(١).

٩ـ وأنْ لا يَستَنكِفَ إذا سُئِلَ عمّا لا يَعلَم أنْ يقول: لا أعلَم، مُقتَدِياً بمالِكِ ابنِ أنسٍ(٢) إمامِ دارِ الهِجرَة، رَضِيَ اللهُ عنه، وقد سُئِلَ عن مسائلَ فقال: لا أدْري، فعوتِبَ في ذلك، فقال: إنّ الملائكَةَ لَم تَستحي مِن أنْ قالَت: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]. وقيلَ لأبي عَمرو(٣): قبيحٌ بمِثلِك أنْ تَقولَ لا أدْري، فقال: أقْبحُ مِن ذلك أنْ أقولَ فأُخطِئ(٤).

هذه جُملةُ ما قُصِدَ مِن تَبيينِه(٥) في هذه الرسالة، فليتصوَّرِ الأستاذُ(٦) وفّر اللهُ

---

(١) هنا يقف المصنف علىٰ الأهداف التي يتبعها المعلم في تعليمه، ومنها نصرة الحق وإشاعة الخير، وليس الهدف إظهار القدرة علىٰ الأعداء والانتصار عليهم واكتساب المال.

(٢) مالك بن أنس (١٧–١٠٠ هـ) أحد أئمة مذاهب الفقه السني. محدث شهير، مؤلف كتاب «الموطأ».

(٣) أبو عمرو بن العلاء ٧٠ – ١٠٤ هـ.

زبّان بن عمرو التميمي المازني البصري أبو عمرو، ويلقب أبا العلاء.

مِن أئمة اللغة والأدب وأحد القراء السبعة، ولد بمكة، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة، قال أبو عبيدة: كان أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر، وكانت عامة أخباره عن أعراب أدركوا الجاهلية. له أخبار وكلمـات مأثورة. وللصولي كتابه: أخبار بن عمرو بن العلاء في غاية النهاية (١ : ٢٨٨)، وفيات الأعيان (١ : ١٦٤)، ابن خلكان ٣٨٦، الذريعة (١ : ٣١٨).

(٤) ومجمل هذه النقطة الجرأة الأدبية التي ينبغي أن يتحلىٰ بها المعلم فيعلن عدم علمه بأمر لا يعلمه، ولا أن يدعي العلم بكل شيء.

(٥) يعني المصنف ما قصد من تبيينِه وتوضيحه من صفات المعلم بوجه خاص. فربما كان هذان الموضوعان هما أساس الرسالة.

(٦) يدعو المصنّف الأستاذ الذي رفع له الرسالة أن يتأمل المضامين التربوية في مواصفات المتعلّمين والمعلّمين، فضلاً عن الفصول التي سبقتها في هذه الرسالة. أي هي في موضوع التربية والتعليم.

له العقلَ وحَرسه بمكانةِ الفَضلِ وجَعلَه ممن[١] يَرمُـقُ بعَينِ أدبِه أكثرَ مـمّا يرمقُ بعين نَسبه[٢].

* * *

(١) نلاحظ دعوة المصنف لله أن يهيئ لأستاذه عقلاً أولاً وفضلاً محروساً ثانياً، وهذا من فضيلة الإنسان بالعلوم.

(٢) يدعو له أن يشتهر بين الناس بعلمه وأدبه وأخلاقه لا بنسبه وأجداده، وهذا أيضاً من باب التركيز على أن فضيلة الإنسان بالعلوم، وليس بالأنساب.